غايات علم الاستغراب

دكتور/ صلاح بن عبدالله العيبان
أستاذ مساعد في قسم الثقافة الإسلامية بكلية الشريعة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

يهدف بحث: "غايات علم الاستغراب" إلى بيان الأهداف التي يتغيّاها خطاب الاستغراب ويسعى لها، وذلك من خلال ضبط هذه المقاصد وتحديدها حتى لا يخرج الاستغراب عن مراده، ويُدخل فيه ما ليس متناسبًا مع أهدافه.

وقد حصرت الغايات في خمسة مباحث، حيث يتناول المبحث الأول موضوع التعارف والتعايش باعتباره هدفًا رئيسًا للاستغراب، وفي المبحث الثاني سلطت الضوء على هدف الاستغراب في تعزيز الانتماء الذاتي ومعرفة مقومات النهضة في الثقافة الإسلامية، أما المبحث الثالث فقد تناولت فيه سعي الاستغراب في تأسيس منهجية علمية متينة وبناء مادة معرفية عميقة، وأما المبحث الرابع فقد كان حول غاية الاستغراب في تحقيق الاستقلال الفكري والإبداع العلمي ، وأخيرًا في المبحث الخامس سلطت الضوء على مقصد التمكن من أسباب القوة وبناء الثقة بالنفس.

وقد سلكت في هذا البحث عدة مناهج، ومنها المنهج الاستقرائي من خلال تقصي الدراسات الاستغرابية ومعرفة أهدافها، وكذلك المنهج التحليلي من خلال تحليل النصوص في موضوع الاستغراب وفهم مراداتها، والمنهج النقدي لبيان أوجه الصواب والخطأ في أهداف الاستغراب، والإجابة على الإشكالات التي تدور حول غايات الاستغراب.

الكلمات المفتاحة: الاستغراب، التغريب، الاستشراق، الغرب.

The aims of the science of Occidentalism

Dr. Salah Abdullah Alaiban

Assistant Professor in the Department of Islamic Culture, College of Sharia

Imam Muhammad Bin Saud Islamic University

Abstract

The aim of the research: "The aims of the science of Occidentalism" is to clarify the goals pursued by the discourse of Occidentalism and strive for them, by controlling and defining these purposes so that Occidentalism does not go out of its way and includes in it what is not commensurate with its objectives.

The goals were confined to five topics, where the first one deals with the issue of acquaintance and coexistence as a major goal of Occidentalism, and in the second topic, it sheds light on the goal of promoting self-affiliation and knowing the elements of renaissance in Islamic culture. As for the third topic, it was about the goal of achieving intellectual independence and scientific creativity, and the fourth topic dealt with the quest for Occidentalism in establishing a solid scientific methodology and building a deep knowledge material. Finally, in the fifth topic, it sheds light on the purpose of mastering the causes of strength and building self-confidence.

Several approaches have been used in the research, including the inductive approach by investigating occult studies and knowing their objectives, as well as the analytical approach by analyzing texts about Occidentalism and understanding its meanings, and the critical approach to clarifying the right and wrong aspects of the objectives of Occidentalism and answering the problems that centered around the objectives of Occidentalism.

Keywords: Occidentalism, Westernization, Orientalism, the West.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن احتكاك العالم الغربي بعد تطوره وحداثته بالعالم الإسلامي قد ولّد كثيرًا من التحديات والإشكاليات، وأثار عددًا من التساؤلات، وجعل شريحة واسعة من مفكري العالم العربي والإسلامي يعيش صدمة حضارية أفقدته التوازن في عرضه ودراسته، وحجبت عنه مقاربة الغرب مقاربة منهجية علمية في ظل غموض البدايات ونقص التصورات وفرق الإمكانيات.

وفي ظل اختلال موازين القوى بين الشرق والغرب، فقد صار العالم الإسلامي وتراثه مادة لدراسة الغربيين، وتطبيق نظرياتهم بما عُرف بمصطلح الاستشراق، والذي أنتج كمًا كبيرًا من المؤلفات والموسوعات والدراسات، وكان محل جدل بين المفكرين العرب قبولا به أو ردا عليه.

وبعد تجلي صورة الغرب بشكل أظهر، وزوال لحظة الصدمة، وعودة نوع من التوازن في الذات العربية، وتعدد الكتابات العربية والترجمات، وكثرة الدارسين من العرب في المجتمعات الغربية، فقد سعى بعض المفكرين العرب والمسلمين إلى استغلال هذه اللحظة الفارقة، وذلك سعيًا في مواجهة العلاقة غير المتكافئة بين الشرق والغرب كما يتجلى في الاستشراق، فقاموا باقتراح علم الاستغراب بحيث يكون الغرب موضوعًا للدراسة من العالم الشرقي، وجاءت المطالبة بأن نعامل المستشرقين بمثل ما يعاملوننا به، فنسعى لدراسة الغرب بأديانه ومذاهبه وأفكاره وآدابه وتقاليده، ونقده.

وبناء على أن الثقافة الغربية ونظرتها تجاه العالم الإسلامي لها انعكاسات على العالم العربي والإسلامي وحضور مؤثر فيه، فقد جاء خطاب الاستغراب ليعالج أمرًا واقعًا وظاهرة مؤثرة، بدلًا من تجاهل تأثير الغرب أو دراسته بناء على اجتهادات شخصية ومبادرات مبعثرة، أو حماسات غير منضبطة، أو عشوائية منهجية، فجاء هذا البحث محاولة منه في إزالة كثير من اللبس الذي وقع في علم الاستغراب، ساعيًا إلى ضبط مقاصده، وتحديد غاياته حتى لا يكون مشروعًا معرضًا لهدر الجهود والطاقات، والوقوع في الاختلاف والتضاد؛ وقد عنونت لهذا البحث بـ: **غايات علم الاستغراب.**

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١- الحاجة إلى إحكام خطاب الاستغراب من خلال ضبط غاياته وتوضيح مقاصده.

٢- أن إبراز غايات الاستغراب وأهدافه يعطي مبررًا لوجوده خاصة في ظل تردد كثير من الباحثين بأهميته، وعدم قناعتهم بتبنيه.

٣- أن تأثير الغرب على العالم الإسلامي أمر واقع وظاهر؛ ولذلك فأهمية دراسته ومعرفته يمثل ضرورة واقعية.

٤- عدم اطلاعي على وجود دراسة خاصة في ذلك.

مشكلة البحث:

أن مشروع الاستغراب يعد مشروعًا حديثًا ما زال يتلمس طريقه؛ ولذلك فإن الحاجة إلى بيان غاياته ومحاولة تحديد مقاصده من الأمور التي تسهم في إيضاح صورة الاستغراب وترسيخ وجوده.

أهداف البحث:

١- بيان هدف خطاب الاستغراب في تحقيق التعارف والتعايش.

٢- التعرف على مقصد الاستغراب في تعزيز الانتماء الذاتي، وإدراك مكامن القوة فيه.

٣- ذكر غاية الاستغراب في بناء الاستقلال الفكري، والإبداع المعرفي.

٤- توضيح سعي الاستغراب في تأسيس منهجية علمية راسخة في دراسة الغرب ومعرفته.

٥- بيان مبتغى الاستغراب في التمكن من أسباب القوة والنهوض الحضاري.

الدراسات السابقة:

من خلال البحث فيما كُتب عن الموضوع في فهارس المكتبات العامة، ومحركات البحث الشبكي، لم أجد دراسة مخصصة حول هذا الموضوع، وإنما جاء الحديث عن الاستغراب بشكل عام دون تخصيص بحث حول مقاصده وغاياته.

منهج البحث:

إن المنهج المتبع في هذا البحث هو المنهج الاستقرائي، وذلك من خلال تتبع الكتب والأبحاث حول موضوع الاستغراب، والمنهج التحليلي وذلك من خلال تحليل الكتابات حول خطاب الاستغراب، والمنهج النقدي وذلك ببيان أوجه الصواب والخطأ في أهداف الاستغراب، والرد على أبرز ما يثار حول أهدافه من إشكاليات وتساؤلات.

١- جمع المادة العلمية من المصادر الأصلية دون واسطة.

٢- كتابة البحث بأسلوب واضح، وصياغة منتظمة.

٣- كتابة الآيات بالرسم العثماني، وذكر مواضعها في حاشية البحث.

٤-تخريج الأحاديث والآثار الواردة في البحث، فإن كانت في الصحيحين أو أحدهما فأكتفي بتخريجه منهما، وإن كان في غيرهما بينت درجة الحديث من كتب الحديث المعتمدة.

خطة البحث:

يتكون هذا البحث من مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة.

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومشكلة البحث، وأهدافه، والدراسات السابقة فيه، ومنهجه ، وخطته.

التمهيد: وفيه التعريف بمصطلحات البحث (الغاية والاستغراب).

المبحث الأول: تحقيق التعايش والسلم العالمي.

المبحث الثاني: تعزيز الانتماء للذات ومعرفتها في مقابل الآخر.

المبحث الثالث: تأسيس منهجية علمية ومادة معرفية في دراسة الغرب.

المبحث الرابع: تحقيق الاستقلالية الفكرية والإبداع المعرفي.

المبحث الخامس: التمكن من أسباب القوة.

التمهيد

أولًا: تعريف الغايات:

الغايات جمع غاية، والغاية في اللغة مأخوذة من الفعل غيا.

والغاية لغة هي: "أقصى الشيء... وغاية كل شيء: منتهاه، وجمعها غايات"[١].

وتأتي الغاية بمعنى مقصود الشيء ومراده.[٢]

والمعنى اللغوي للغاية قريب من الاستعمال الاصطلاحي، حيث يراد بالغاية من الأمر: ما يترتب على هذا الأمر ويكون غرضًا له، أو الفائدة المقصودة من هذا الأمر.[٣]

فغاية الاستغراب أي: ما يترتب على الاستغراب من نتائج، ويكون مقصودًا له.

ثانيا: تعريف الاستغراب لغة واصطلاحا:

أ- تعريف الاستغراب لغة:

الاستغراب مأخوذ من الفعل الثلاثي (غَرب)، والألف والسين والتاء للطلب؛ إذ إن صيغة استفعل واستفعال تأتي في اللغة بمعنى الاجتهاد في طلب الشيء.[٤]

والفعل (غرب) يأتي في اللغة بعدة معان، ومنها ما يدل على الجهة، قال ابن سيده: "الغرب خلاف الشرق.. "[٥] ، ثم ذكر لذلك المعنى أمثلة منها قولهم: غرّب القوم، أي ذهبوا في المغرب . واغربوا، أي أتوا الغرب.

وتأتي كذلك بمعنى البعد والتنحي، فالغرب : الذهاب والتنحي عن الناس ، ومن هذا المعنى ألفاظ: الغربة والتغرب والاغتراب، والتي تعني البعد عن الوطن، ومنه غروب الشمس، لبعدها عن وجه الأرض، ودارهم غربة، أي نائية، واغرب عني أي ابتعد.[٦]

ومن هذا المعنى قول النبي –صلى الله عليه وسلم– في الزاني غير المحصن : " وعلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِئَةٍ، وتَغْرِيبُ عَامٍ "[٧] ، أي نفيه عن بلده .[٨]

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، (١٥/ ١٤٣). وانظر: المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، (٥٤٨/٥).

(٢) انظر: المعجم الوسيط، لمجموعة من المؤلفين، (٦٦٩/٢).

(٣) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، للتهانوي، ص٥٠، والكليات، لأبي البقاء الكفوي، ص ١٠٦٥.

(٤) انظر: شذ العرف، للحملاوي، ص٣٤.

(٥) المحكم والمحيط الأعظم (٥ / ٥٠٦) .

(٦) انظر : المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، (٥ / ٥٠٦) ، لسان العرب، لابن منظور، (١ / ٦٣٧ – ٦٣٩).

(٧) أخرجه البخاري، كتاب الصلح ، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ح (٢٥٤٩)، ومسلم، كتاب الحدود ، باب: من اعترف على نفسه بالزنا ح (١٦٩٧).

(٨) انظر : تهذيب اللغة، للأزهري، (٨ / ١١٨ – ١١٩) ، ولسان العرب، لابن منظور (١ / ٦٣٩)، ومختار الصحاح للرازي، ص ١٩٧.

ب- تعريف الاستغراب اصطلاحا:

إن الاستغراب وإن كان مصطلحًا جديدًا على الثقافة العربية، فهو في بعض مضامينه ومحتواه يعد مفهومًا قديمًا في الجملة.(١)

وبناء على أن المصطلح حديث الاستعمال، فقد اكتنفه غموض ولبس فيما يدخل فيه من مضامين، ولذلك اختلفت كلمة الباحثين فيه.

فقد ظل هذا المصطلح يُستخدم بمعناه اللغوي حتى بدايات القرن العشرين، ثم أخذ معنى جديدًا، وهو الافتتان بالعالم الغربي وتقليده، وهو ما عناه مصطفى الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب(٢)، والبشير الإبراهيمي في حديثه عن جمعية العلماء الجزائريين، فقال: "ولولا هذه الجمعية لضاع على العرب نصف عددهم، وهو ثلاثون مليونا هم سكان المغرب العربي، وجرفهم تيار الاستغراب"(٣).

وهذا الإطلاق ليس حصرًا على علماء المسلمين، بل إن من الباحثين الغربيين من يحيل معنى الاستغراب (Occidentalism) إلى الميل إلى الثقافة الغربية وتبنيها.(٤)

وهذا التضاد في الاستعمال هو ما حمل بعض الباحثين لتقسيم مفهوم الاستغراب إلى نوعين: الاستغراب السلبي وهو ما يمثل حالة الاستلاب والتبعية للعالم الغربي والإعجاب بهم، والاستغراب الإيجابي وهو ما يكون بناء على أسس علمية ومنطلقات ذاتية.(٥)

على أن الاستغراب السلبي وهو تقليد الغرب ومحاكاتهم قد غلب عليه مصطلح التغريب، وأصبح أكثر ظهورًا عليه، في حين أن مصطلح الاستغراب بإطلاق أخذ معنى جديدًا في مقابلة معنى الاستشراق، وقد تلقفه كثير من المفكرين ودار حوله الاختلاف والنقاش.(٦)

فقد سلك كثير من الباحثين في تعريف الاستغراب مسلك المقابلة مع تعريف الاستشراق، فمن التعريفات:

- قيل بأنه: "تبحر أهل الشرق في إحدى لغات الغرب وآدابها وحضارتها"(٧).

---

(١) انظر: كنه الاستغراب لعلي النملة، ص ١٥ – ١٦.

(٢) ص٢٠.

(٣) آثار محمد البشير الإبراهيمي (٤ / ١٦١).

(٤) انظر: تداولية الاستغراب في الفكر العالمي المعاصر، للمبروك الشيباني المنصوري، ص١٤٢، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣هـ.

(٥) انظر: مجلة الاستغراب، المقدمة، ص ١٢، عدد١، ١٤٣٦ه.

(٦) ويبرز جزء من هذا الاختلاف فيما جمعه أحمد الشيخ في كتابه: المثقفون العرب والغرب: من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب.

(٧) فلسفة الاستشراق، لأحمد سمايلوفتش، ص ٣٧.

- وقيل هو : "علم معرفة الغرب"[١] .

لذلك ينبغي التأكيد على التفريق بين الاستغراب والتغريب، فالاستغراب ينحى إلى دراسة الغرب دراسة علمية وفكرية وثقافية، بينما التغريب يتوجه نحو تبني الفكر الغربي وثقافته وتسويقه على حساب ثقافة الشخص.[٢]

وبعض الباحثين يرى بأن دراسة العالم الغربي في خطاب الاستغراب لا يتعلق بجهة معينة، وإنما هو حقل معرفي عام يشمل الباحثين من كافة أقطار العالم بما فيهم المفكرين الغربيين، ولذا فقد عرفوه:

- بأنه: "مشروع نقدي للفكر الغربي في الألفية الثالثة"[٣].

غير أن الاستغراب وإن كان يعد كتابات الغربيين ومناهجهم الناقدة للمركزية الغربية وأسس الحداثة تمثل مراجع مهمة يستفاد منها، لكن ذلك لا يجعلها جزءًا من الدراسات الاستغرابية وتعريف الاستغراب؛ لأن الغربي يظل جزء من هذه الثقافة، ونقده يُعد نقدًا داخليًا نابعًا من الاختلاف الغربي الغربي.

وسيكون مجال دراستنا للاستغراب خاصًا في الدراسات العربية والإسلامية للعالم الغربي، وبذلك نستبعد الاستغراب الشرقي بعمومه مثل الدراسات اليابانية والصينية وغيرها.

---

(١) مجلة الاستغراب، المقدمة، ص ١٠، عدد١، ١٤٣٦ه.

(٢) انظر: كنه الاستغراب لعلي النملة، ص ٦٦، ومن نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ٢٨٩، وبحث: الاستغراب: البعد الديني في الاستغراب المعاصر، لحسن البارقي، ص ١٥٥–١٥٦ ، مجلة جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية، ع٣٨، ٢٠١٦م.

(٣) انظر: بحث: تداولية الاستغراب في الفكر العالمي المعاصر، للمبروك الشيباني المنصوري، ص١٣٩، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣هـ.

المبحث الأول: تحقيق التعايش والسلم العالمي

فمن أبرز مقاصد الاستغراب تحقيق التعايش والسلم العالمي، وهذا لا يتحقق إلا بمعرفة الآخر وفهمه؛ إذ الفهم يؤدي إلى إمكانية التفاهم، وهو مقدمة أساسية له، ومما يدل على ذلك ما حصل أثناء صلح الحديبية بين الرسول ﷺ ، وكفار قريش، وفيه: "فَقَالَ رَجُلٌ مِن بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيه، فَقالوا: ائْتِه، فَلَمَّا أَشْرَفَ علَى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأَصْحَابِه، قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هذا فُلَانٌ، وهو مِن قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ البُدْنَ، فَابْعَثُوهَا له فَبُعِثَتْ له، واسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذلكَ قالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! ما يَنْبَغِي لهَؤُلَاءِ أنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إلى أصْحَابِه، قالَ: رَأَيْتُ البُدْنَ قدْ قُلِّدَتْ وأُشْعِرَتْ، فَما أَرَى أنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ"(١).

فقد كان تعامل الرسول ﷺ مع الموقف في التفاوض والتفاهم ينطلق من خلال معرفة الطرف الآخر وفهم ما يؤثر عليه، واستثمار ذلك لمصلحته، قال العيني: "فأمر رسول الله ﷺ بإقامتها له من أجل علمه بتعظيمه لها؛ ليخبر بذلك قومه، فيخلوا بينه وبين البيت"(٢).

كما كان رسول الله ﷺ يسعى في صلح الحديبية إلى تحقيق المقاصد السامية والمبتغاة من الطرفين، فقد قال لأصحابه: "والَّذي نفسي بيدِه، لا يَسألوني اليومَ خُطَّةً يُعظِّمونَ بها حرَماتِ اللَّهِ إلَّا أعطيتُهُم إيَّاها"(٣).

فالاستغراب يسهم في تفعيل مبدأ التعارف والتفاهم ويشجع عليه، وقد قال الله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾(٤)، "فقد بيّن الله جل وعلا في محكم كتابه: أن الحكمة في جعله بني آدم شعوبًا وقبائل هي التعارف فيما بينهم. وليست هي أن يتعصب كل شعب على غيره، وكل قبيلة على غيرها"(٥).

فالاختلاف بين الأمم سنة كونية لابد للإنسان أن يدركها ويتعامل معها وفق ذلك، ولا يكون هذا الاختلاف سببًا للعنصرية والعصبية والعدوان والعنف والاحتقار، يقول ابن عاشور في تفسيره للآية السابقة: "أنكم حرفتم الفطرة، وقلبتم الوضع، فجعلتم اختلاف الشعوب والقبائل سبب تناكر وتطاحن وعدوان"(٦).

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ح (٢٥٨١).

(٢) عمدة القاري (١٢/١٤).

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ح (٢٥٨١).

(٤) الحجرات : ١٣.

(٥) تفسير أضواء البيان، للشنقيطي، (٤٥/٣).

(٦) التحرير والتنوير، (٣١/١٤).

فالاستغراب يسعى إلى أن يكون التعامل بين المسلم وبين الطرف الآخر قائمًا على العدل والحق، فلا يبغي طرف على طرف، ولا يظلم أحد الآخر.[١]

فالتفاهم مع الغرب، والاستفادة من منجزاته يمثل غاية منشودة في علم الاستغراب، فليست الغاية رفض الغرب، أو نكران إنجازاته، وبناء صورة نمطية سلبية شاملة عنه، بل وضع الأمور في مكانها الملائم لها، فالحضارة كما يقول علي عزت بغوفيتش: "لا يمكن رفضها، حتى لو رغبنا في ذلك، إنما الشيء الوحيد والضروري والممكن، هو أن نحطم هذه الأسطورة التي تحيط بها، فإن تحطيم الأسطورة سيزيد من أنسنة العالم"[٢].

وهذا الهدف يدفع إشكالية التخوف من الاستغراب بأنه انكماش ثقافي على الذات، وعدم اهتمام بما يدور خارج الحدود، وأن طبيعة الاستغراب تدفع إلى إبراز الفوارق والتأكيد عليها أكثر من إبرازها للمشتركات، فالهدف من الاستغراب، وإن كان يسعى لتعزيز الانتماء للذات كما سيأتي تفصيله، إلا أن هذا لا يمنع دراسة الآخر لمعرفته، وإبراز جوانب الصلاح والفساد فيه، وإمكانية التعايش معه وفق المشتركات والاهتمام المتبادل وبناء أرضية مشتركة للتعاون والتبادل الثقافي.[٣]

ولذلك فإن الاستغراب ينشد ويتطلع بأن يخرج من إطار الاجتهادات الشخصية، "ومن دعوة يطلقها البعض هنا أو هناك، ليصير اتجاهًا حضاريًا جديدًا، وله إسهاماته في إطلاق وتعميق أسس الحوار الحضاري الحقيقي"[٤].

وبناء على ذلك فإن الاستغراب يهدف من خلال التعارف والتعايش إلى تحقيق عدد من الأمور:

١- توسيع دائرة المهتمين والمتأثرين بعلم الاستغراب، حيث إنه ما زال محصورًا وقاصرًا على عدد من النخب المثقفة، ولذلك فالمصطلح لدى كثير من الناس مصطلح غامض غير معروف، وهذا القصور يؤدي إلى قصور في تحقيق المقاصد المنشودة التي يتغياها الاستغراب، فبدلًا من تشرذم الناس، وعدم وجود رؤية واضحة في التعامل مع الغرب، فإن الاستغراب يسعى لتعميم رؤيته، وانعكاسها على الشعوب المسلمة في التعامل الواعي والهادف مع الغرب وتحقيق التعايش والتعارف.[٥]

---

(١) انظر: كنه الاستغراب لعلي النملة، ص١٥.

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب، ص ٢٢.

(٣) انظر: كنه الاستغراب، لعلي النملة، ص ٣٣.

(٤) من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ٢٨٧.

(٥) انظر: كنه الاستغراب لعلي النملة، ص٢٨.

٢- تعزيز أسس الحوار الحضاري بين الثقافتين الإسلامية والغربية، وتصحيح المسار، وإزالة التحديات التي تواجه التلاقح الفكري والتفاهم الثقافي، وتفعيل دور المؤسسات والهيئات لعقد ورش وندوات تعمق جانب الحوار والتعارف، ففي عام ١٩٩٦م عقدت ندوة بالمغرب بعنوان: (الواحد من منظور الآخر)، وخرجت توصية بإنشاء مركز الدراسات الأمريكية، وتكون من أهدافه: "تقوية الحوارات والاتصالات بين الأكاديميين والصحافيين والعلماء والاقتصاديين من كلا الطرفين، كما يطبع الأعمال الثقافية والفكرية التي تخدم كافة أشكال الحوار الحضاري بين الثقافتين العربية والأمريكية"(١).

٣- أن تحقيق التعارف والتعايش طريق إلى فهم الآخر، ومعرفة الأساليب المناسبة للتأثير عليه ودعوته إلى الحق، وهو مما يخدم مصالح المسلمين، ويزيد الخير في المجتمعات الإنسانية، وهو من باب التعاون على البر، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ (٢)، وقد ذكر القرطبي بأن هذا "أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى"(٣)، وهو يدخل في النفع المتعدي، ففي الحديث قال رسول الله -ﷺ-: " خيرُ الناسِ أنفعُهم للناسِ "(٤).

كما أن ذلك يسهم في بناء قاعدة من الشخصيات الغربية الموضوعية المتفهمة للثقافة الإسلامية والمتعاطفة مع قضاياه، ويكون لخطابها أثر أكبر على أبناء جلدتهم، فهم أعرف بهم، وأدرى بما هو أنسب لحالهم من خطاب يناسب عقليتهم، وهذا التعاون لا يعني اشتراط دخول الغربي للإسلام، بل حتى وإن لم يدخلوا الإسلام؛ فهم يسهمون في المشاركة بالخير، ويوسعون من دائرة العاملين له، يقول الطاهر بن عاشور: "أن التعاون عليها يكسب محبة تحصيلها، فيصير تحصيلها رغبة لهم، فلا جرم أن يعينوا عليها كل ساع إليها، ولو كان عدوًا...فهم وإن كانوا كفارًا يعانون على ما هو بر؛ لأن البر يهدي للتقوى"(٥).

لذلك لابد من فرز العالم الغربي وإدراك الاختلاف فيه، وعدم التعامل معه ككتلة واحدة، بل بما يتناسب مع طبيعة توجه الشخص والنقاط المشتركة معه.

---

(١) الغرب من الداخل، لمازن مطبقاني ص ٤. وانظر: بحث: في الحاجة إلى قواعد منهجية لفكر الاستغراب، لحسن عزوزي، ص ٢٦، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣هـ.

(٢) المائدة :٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، (٣٦/٦).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ح(٥٧٨٧). وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة، (٧١٢/١).

(٥) التحرير والتنوير، (٨٧/٦).

فالاهتمام بالاستغراب لا يختص فقط بالعالم الإسلامي، فقد ظهرت في حقل الدراسات الثقافية وغيرها كتابات غربية في دراسة الاستغراب تهدف إلى تجاوز الحداثة الغربية والمركزية الأوروبية، ومن أمثلة ذلك كتاب كوز فان: (الاستغراب: الحداثة والذاتية).[١]

ولا يحصل التعاون بطبيعة الحال في حال كان الطرفان يتخوف كل واحد منهما من الآخر ويجهله، فالمعرفة والفهم طريق لحصول هذا التعاون.[٢]

٤- الاستغراب يهدف إلى إنشاء قاعدة متينة، مؤسسّة على إدراك طبيعة الاختلاف وتفهمه، فالاختلاف مع الآخر قد يقود إلى التنازع والخصام خاصة في جهل كل طرف لما عند الآخر ومبررات موقفه، وقد يكون الاختلاف متفهمًا بين الطرفين وواعيًا للمنطلقات التي تأسس عليها هذا الاختلاف، وهو ما يقود في كثير من أحواله إلى التعايش والتفاهم وسيادة أخلاق الاختلاف والحوار.[٣]

وهذا ظاهر في الانطباعات الشخصية والصور الذهنية عند كثير من أطراف النزاع، فالعالم الغربي تجده على سبيل المثال له موقف شرس وحساسية شديدة وصورة مجتزأة مشوهة تجاه التعامل مع المرأة في الثقافة الإسلامية، ويراها دائمًا في موقف الضحية والمكرهة، والاستغراب بدوره يسهم في بناء صورة صحيحة للغربي عن مكانة المرأة في الإسلام ويعالج القصور في الفهم والاستيعاب لديه.

٥- مواجهة الأفكار التي طرأت على بعض المفكرين العرب والمسلمين نتيجة الشعور بالمظلومية تجاه العالم الغربي، والفجوة الحضارية الواسعة، فقاموا بالدعوة إلى ضرب عزلة عن مكونات العالم الغربي والابتعاد عن كل ماله علاقة به، والدعوة إلى المفاصلة الجذرية معه، وقد تطرف بعضهم إلى تهديد العالم الغربي وكل ما له علاقة به من المؤسسات في العالم الإسلامي، ومارسوا العدوان وانتهاك حرمة دماء المعاهدين والمستأمنين، وإفساد الممتلكات والثروات.

فمهمة الاستغراب مدافعة هذه الأفكار المتطرفة من الطرفين، يقول زكي نجيب: " فبينما يظن المفكر الغربي أننا لا نستطيع بطبيعتنا أن نهضم حضارته وثقافته، نرى بعض مفكرينا أيضا يتصورون أن الغربي من جهة أخرى لا يستطيع أن يرانا على حقيقتنا...والمسألة ليست تبعية وإنما مشاركة حضارية، وهذه المشاركة لا تمنع شعبا من

---

(١) انظر: بحث: تداولية الاستغراب في الفكر العالمي المعاصر، للمبروك الشيباني المنصوري، ص ١٣٨ -١٣٩، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣هـ.

(٢) انظر: من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص د١٦١، في حواره مع كرم خله، بعنوان: حذار من المركزية الشرقية.

(٣) من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص٣١٤.

الشعوب من الاحتفاظ بهويته الشخصية؛ لأن هذه الهوية قوامها فروع أخرى تضاف إلى التيار الحضاري العام، فالهوية تظهر فيما ننفرد به"[1]، وهو ما يؤكد بأن هذه المفارقة الجذرية تمثل ردة فعل ناقمة أكثر من كونها قائمة على أسس علمية.

وهذا ما يؤكد بأن محاولة بعض الكتاب الغربيين من ربط الاستغراب بجماعات العنف والتطرف في العالم الإسلامي قصد تشويهه يخالف الأهداف التي ينشدها الاستغراب، بل يمكن أن يقال بأن الاستغراب هو في مقابلة عكسية مع فكرة الصراع والصدام والمفاصلة مع العالم الغربي، كما أن تحقيق التوازن في هذا الأمر لا يعني اندماج العربي وتبعيته للعالم الغربي وفكره كما يصورها بعض الباحثين الغربيين وأنه المقابل الصحيح ضد التطرف والعنف.[2]

فخطاب الاستغراب يستعمل اللغة العلمية العاقلة التي تقرب الآخر وتعطيه رؤية أقرب لثقافة المسلمين، واستبعاد اللغة المستفزة أو الساخرة التي تثير مشاعر الكراهية والانتقام لدى الغرب، والتي ربما ارتدت سلبًا على الثقافة الإسلامية ودول المسلمين، وهذا الأمر قائم على اتباع الأمر الإلهي، حيث قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ ﴾ [3]، يقول الرازي: . " لقائل أن يقول : إن شتم الأصنام من أصول الطاعات ، فكيف يحسن من الله أن ينهى عنها ، والجواب : أن هذا الشتم ، وإن كان طاعة إلا أنه إذا وقع على وجه يستلزم وجود منكر عظيم ، وجب الاحتراز منه، والأمر ها هنا كذلك ؛ لأن هذا الشتم كان يستلزم إقدامهم على شتم الله وشتم رسوله، وعلى فتح باب السفاهة، وعلى تنفيرهم عن قبول الدين، وإدخال الغيظ والغضب في قلوبهم، فلكونه مستلزما لهذه المنكرات ، وقع النهي عنه "[4].

فالاستغراب يحاول تنحية المناكفات الفكرية، والمناوشات الإعلامية، والصراعات المؤدلجة في سبيل تقريب الرؤى العلمية المتعقلة. [5]

---

(1) من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ٢٣-٢٤، في حواره مع زكي نجيب محمود بعنوان: خلافنا مع الغرب وهم متبادل.

(2) انظر: بحث: تداولية الاستغراب في الفكر العالمي المعاصر، للمبروك الشيباني المنصوري، ص١٤٢، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣هـ.

(3) الأنعام : ١٠٨.

(4) مفاتيح الغيب (١١٠/١٣).

(5) انظر: بحث: خطاب الاستغراب العربي المعاصر، ليوسف بنلمهدي، ص ٨٨، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣هـ.

المبحث الثاني: تعزيز الانتماء للذات ومعرفتها في مقابل الآخر

إن الاستغراب في دراسته الأمم الأخرى بناء على النظام المعرفي الإسلامي يقودنا إلى " اكتشاف القدرة التنظيرية الهائلة لهذا العلم، ويجنبنا من الوقوع في فخ صدمة المعرفة بالغرب جراء الفجوة المعرفية الهائلة بين العالمين الغربي والشرقي، والعلمين الاستغراب والاستشراق"(١).

وهذا التعرف على الآخر الهادف إلى تعزيز الانتماء الذاتي يستلزم انطلاق المسلم في دراسته للعالم الغربي من منطلقاته الثقافية الفكرية والأخلاقية، وهذا ما يؤكد بأن الاستغراب في سعيه لتحقيق الانتماء الذاتي لابد أن يقوم على ركيزتين، هما:

الركيزة الأولى: الإيمان بتميز الثقافة الإسلامية وإمكانياتها، وأن لديها من المقومات والأسس ما يؤهلها لأن تمسك زمام المبادرة في دراسة الغرب، يقول ابن تيمية متحدثًا عن عصره، وهو من العلماء المبرزين الذي كان لهم دور في نقد فلسفة اليونان ومنطقه: "فليس عند أهل الكتاب فضيلة علمية وعملية إلا وأمة محمد ﷺ أكمل منهم فيها.

فأما العلوم فهم أحذق في جميع العلوم من جميع الأمم، حتى العلوم التي ليست بنبوية ولا أخروية؛ كعلم الطب مثلًا والحساب ونحو ذلك، هم أحذق فيها من الأمتين، ومصنفاتهم فيها أكمل من مصنفات الأمتين، بل أحسن علمًا وبيانًا لها من الأولين الذين كانت هي غاية علمهم...وأما العلوم الإلهية والمعارف الربانية، وما أخبرت به الأنبياء من الغيب كالعرش والملائكة والجن والجنة والنار وتفاصيل المعاد، فكل من نظر في كلام المسلمين فيها، وكلام علماء اليهود والنصارى وجد كلام المسلمين فيها أكمل وأتم"(٢).

الركيزة الثانية: الاهتمام بدراسة مقومات الذات وتاريخها، والتبحر في علوم الأمة ومعرفة قيمة تراثها، فلا يكفي في دراسة الغرب التبحر في علومه دون وجود رسوخ علمي في تراث المسلم، ينطلق منه، ويؤسس منهجه عليه، بل يصح أن يقال بأن معرفة الإنسان لذاته أساس لمعرفته بغيره.(٣)

وقد كان كثير من المفكرين العرب الذي تبنوا خطاب الاستغراب متحمسين بأن يقود هذا الخطاب إلى تحقيق الانتماء الذاتي، ورؤيتها لنفسها من خلال ذاتها، وكثيرًا ما كان حسن حنفي يردد ذلك، فيقول: "بدلًا من أن يرى المفكر والباحث صورة الآخر في

---

(١) انظر : سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي لعادل عيساوي، ص ١٠.

(٢) الجواب الصحيح، (٦/ ٢٢-٢٣).

(٣) انظر: بحث: خطاب الاستغراب العربي المعاصر، ليوسف بنلمهدي، ص ٨٣، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣هـ.

ذهنه، رأى صورته في ذهن الآخر، بدل أن يرى الآخر في مرآة الأنا رأى الأنا في مرآة الآخر، ولما كان الآخر متعدد المرايا ظهر الأنا متعدد الأوجه"[1].

ومن هنا يتضح بأن الاستغراب في تعزيز الانتماء الذاتي يسعى لتحصيل هدفين هما:

الهدف الأول: رؤية نفسه من خلال مرآته وثقافته بدلًا من رؤيتها من خلال مرآة الآخرين، وخاصة فيما يتعلق بكتابات المستشرقين.

الهدف الثاني: رؤية الغرب من خلال الذات، بدلًا من رؤيتها من خلال أعين أصحابها، وهو ما يؤكد ضرورة وجود كتابات عربية تقوم بدراسة الغرب من وجهة نظرها، وعدم الاكتفاء بالترجمة والنقل من داخل الثقافة الغربية.

وهذا الانتماء الذاتي ليس مقصوده أن يكون انتماء مغلقًا يؤدي إلى عزلة الذات بل انتماء واعيًا منفتحًا على الآخر، وهو ما يدفع تخوف عدد من المفكرين العرب الذين رفضوا الاستغراب؛ لأنه في نظرهم يسهم في قيام المركزية العربية وتضخمها في مقابل المركزية الغربية، وأن ذلك بدوره يعزز حالة الانقسام والمفاصلة بين العالم الشرقي والغربي.[2]

فعلم الاستغراب في غايته لتقوية انتماء الإنسان لحضارته وثقافته، يتحقق بعدد من الأمور:

١- لابد ألا يكتفي الاستغراب بالدراسات النظرية والبحوث المتخصصة، بل إن من أهدافه أن يؤسس لممارسة عملية للعلاقة مع الآخر، بحيث تحرر الأنا ثقافيًا وحضاريًا وعلميًا من هيمنة الآخر.

فدراسة العالم الغربي باعتباره آخرًا مغايرًا يستبطن نوع من العودة إلى الذات وكشف مواطن قوتها، فالتخلص من هذه الهيمنة النفسية وسيطرة العالم الغربي لا تتم فقط بمجرد الكلام العاطفي، والدعوات الفارغة من العمل، بل إن من السنن الإلهية أن الإنسان عندما تفرغه من شيء فلابد أن يكون ثمة بديل ظاهر له يحتمي به وينطلق منه ويتحقق به وجوده واعتباره.

فحضور الغرب في الشخصية العربية والمسلمة يعد أمرًا لا يمكن إنكاره، وهو ما يسعى الاستغراب إلى استبداله بطريقة منهجية علمية. [3]

---

(1) مقدمة في علم الاستغراب، لحسن حنفي، ص٥٥-٥٦.

(2) انظر : سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي، لعادل عيساوي، ص ١١.

(3) انظر: مقدمة في علم الاستغراب، لحسن حنفي، ص ٩٤، وبحث: العالم الإسلامي وعلم الاستغراب النقدي، لأحمد كلاته، مجلة الاستغراب، ص ٢١٨، عدد١، ١٤٣٦هـ.

ولا شك بأن دراسة الغرب ونقده لا يحقق بالضرورة تحرر الذات من إسـاره، وإنما لابد أن يتوافر معه أكثر من جهد وسبب، لكنه مع ذلك يسهم فـي المـشاركة فـي تحرير الذات العربية، ويحض على استنهاض الفكر العربي والإسلامي.[١]

٢- أن هناك الكثير من عناصر الوعي بالذات ومكامن القوة فيها والضعف لا ينكشف إلا باطلاعه على ما عند الأمم الأخرى ومقابلته بها.[٢]

وهذا ما يمكن استنباطه من مقولة عمر بن الخطاب ﷺ: "إنما تـنقض عـرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية"[٣].

وقد علق ابن القيم على قوله تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٤] فقال: " فالعالمون بالله وكتابه ودينـه عرفـوا سـبيل المـؤمنين معرفـة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان، كما يستبين للـسالك الطريق الموصل إلى مقصوده، والطريق الموصل إلى الهلكـة، فهـؤلاء أعلـم الخلـق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة"[٥]، فالمعرفة بالـذات تتكـشف بـشكل أظهر عند معرفتها بالآخر، وتدرك مواطن التميز فيها.

٣- أن إثارة أكثر التحديات التي تواجه العالم اليـوم، والمـشكلات التـي يتعرض لها العالم العربي والإسلامي غالبًا ما يكون مصدرها الغرب، وهو ما يبادر إلـى وضع الحلول لها انطلاقًا من ثقافته، ولذلك فـإن إسـهام المفكـرين المـسلمين بـإبراز التحديات والمشكلات الحقيقية، واقتراح الحلول لها من خلال رؤيتهم وثقافتهم تسهم فـي تعزيز انتمائهم، وتبرز دورهم الحضاري على المجتمعات الإنسانية، والمشاركة الفاعلـة في بناء الحضارة الإنسانية بناء سليمًا، وتزويدها بالإمكانات والأفكـار والحلـول التـي تفتقدها الحضارة الغربية.[٦]

٤- أن كثيرًا من مظاهر تفتت الهوية والانهزامية في العالم الإسلامي علـى مستوى الثقافة أو اللغة هو نتاج التأثر بالعالم الغربي، والـشعور لـدى الـبعض بعقـدة النقص، فالتغريب قد "امتد أثره ليس فقط إلى الحياة الثقافية وتـصوراتها للعـالم وهـدد استقلالنا الحضاري، بل امتد إلى أساليب الحياة اليومية، ونقاء اللغـة ومظـاهر الحيـاة

---

(١) انظر: بحث: في الحاجة إلى قواعد منهجية لفكر الاستغراب، لحسن عزوزي، ص ٢٠، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعـة قطـر، مجلـد ٣٩، عـدد٢، ١٤٤٣هـ.

(٢) انظر: بحث: في الحاجة إلى قواعد منهجية لفكر الاستغراب، لحسن عزوزي، ص ٣٨، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعـة قطـر، مجلـد ٣٩، عـدد٢، ١٤٤٣هـ.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (٣٠١/١٠).

(٤) الأنعام : ٥٥.

(٥) الفوائد، ص١٠٨.

(٦) انظر : سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي، لعادل عيساوي، ص ٢٢- ٢٣، وبحث: في الحاجة إلى قواعد منهجية لفكر الاستغراب، لحسن عزوزي، ص ٤٠، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣هـ..

العامة وفن العمارة"[١]، فتعزيز الانتماء للذات ومعرفة مكانتها من أهم العوامل التي تمنع الوقوع في الانبهار الحضاري والتبعية الثقافية، والتي ربما تسربت في خطاب الاستغراب من خلال بعض الكتابات الضعيفة في البناء على المكونات الثقافية الذاتية، وظهور التشرب الواضح للنظريات النقدية الغربية.

فالاستغراب يسعى إلى إسقاط الحواجز النفسية والمعرفية التي تحول دون التعرف على الغرب بطريقة ذاتية، وفهمه فهمًا متبادلًا.[٢]

والقيام على الأصول الثقافية الذاتية كما أنها تخلص الباحث من الشعور بالقصور إزاء الثقافة الغربية، فهي كذلك تخلصه من الشعور بالحرج من الأخذ منهم؛ لأن هذا الأخذ مؤسس على الثقافة الذاتية ومستند إلى معاييرها، وقد تكون هذه الاستفادة معدلة بما يتناسب مع أصول الباحث ومصادره الذاتية.[٣]

فالتخلص من الضعف وعقدة النقص في التعامل مع الغرب، هي من أهم مهمات الاستغراب؛ لأنه مما يؤسف له أن تعزيز النظرة الفوقية للغرب، والدونية للذات لا تنحصر على الجانب الغربي فقط، بل إن من أفراد المسلمين من يدعم هذه النظرة في طريقة تعامله مع الغربي بدونية، والفرح بمدحه والحزن بذمه، والاهتمام لأمره، والاستشهاد بحكمائه وفلاسفته؛ باعتباره معيارًا يقاس عليه تقدم الأمة أو تأخرها، يقول ابن تيمية: "ومن أدمن على أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم، لا يبقى لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذاك الموقع"[٤].

ولذلك فإن الاستغراب في دراسته للغرب يسعى إلى نفي مفاهيم الغلبة والتبعية والإكراه، ويتعامل مع الغرب تعاملًا علميًا بمنطلقات ذاتية.[٥]

٥- أن العادة جرت بأن يوضع الباحثين من العرب والمسلمين في مرتبة أقل في المكانة العلمية عمن يناظرهم في العالم الغربي، بل إن بروز بعضهم كان انعكاسًا لبروزهم عند الغرب، ومن أسباب ذلك ضعف الثقة في ذواتنا مع الانبهار بما عند فلاسفة الغرب ومفكريهم من رؤى وأفكار، وهذا لا يتعلق فقد بالوضع الحالي فقط، وإنما كذلك بعدم تقدير تراث الأمة ودور علمائها الحضاري والعلمي.

---

(١) مقدمة في علم الاستغراب، لحسن حنفي، ص ٢٢.

(٢) انظر: انظر: بحث: في الحاجة إلى قواعد منهجية لفكر الاستغراب، لحسن عزوزي، ص ٢٦، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣هـ.

(٣) انظر: سؤال العمل، لطه عبدالرحمن، ص ٥٠.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم، (٥٤٣/١).

(٥) انظر: مجلة الاستغراب، المقدمة، ص ١٣، عدد١، ١٤٣٦ه.

ولذلك فمن مهمة علم الاستغراب تقدير إنتاج الثقافة الإسلامية قديمًا وحديثًا، وإبراز المفكرين في حضارتنا ودعمهم والإشادة بما عندهم والاستفادة من نتاجهم.[١]

٦- أن النظرة العامة والسائدة في الغرب أنه هو الدارس للحضارات الأخرى، وغيره دائمًا مدروس، وقد تبع ذلك شعورهم بالفوقية والتعالي، وأورث عددًا من المفكرين والباحثين العرب شعورًا بالدونية، وهذا ما يدفع بخطاب الاستغراب إلى محاولة تحقيق التوازن، وأهلية الذات العربية لدراسة غيرها من الحضارات، وأنها جديرة بأن تكتب وتبدي وجهة نظرها في المظاهر الثقافية والعقلية في الغرب، وأنه من الممكن "تحويل الآخر إلى موضوع للعلم بدلًا من أن يكون مصدرًا للعلم"[٢].

وهذا ما يؤكد على الباحثين المسلمين والمبتعثين في الجامعات الغربية أن يكون مجال دراستهم هو الغرب على اختلاف المجالات فكريًا واجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا وقانونيًا، وألا يتأثروا بالطابع العلمي السائد في الكتابة في شؤون بلادهم العربية والإسلامية، بل إن دراسة الغرب في جامعاته ومعايشة مجتمعاته أولى من دراسته من خارجه في الجامعات العربية، وحاجة العالم الإسلامي إلى دراسات الواقع الغربي في الجامعات الغربية أشد من دراسات الموضوعات العربية في الجامعات الغربية، وخاصة في العلوم الإنسانية.[٣]

٧- أن الحوار مع الآخر وقبوله لا يكون مثمرًا ومفيدًا إلا بقبول الذات والثقة بها، والقصور في معرفة الذات، والغربة عن تراث الأمة وتاريخها يفضي بالحوار عادة إلى نتائج سلبية، إما أن تؤدي إلى الانغلاق والجمود والهروب من الواقع السائد، أو الخضوع والخنوع للآخر، أو أن يكون خطابًا تبريريرا اعتذاريًا.[٤]

---

(١) من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ٩١، في حواره مع علي فهمي خشيم بعنوان: الغرب يرفض الاستغراب.

(٢) مقدمة في علم الاستغراب لحسن حنفي، ص ٥.

(٣) انظر: من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ٧، ومقال: متى ينشأ علم الاستغراب؟، لمازن مطبقاني، مجلة الفيصل، ع ٢٧١، شهر محرم ١٤٢١ه، ص٦٠.

(٤) انظر: من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ٢٦٧، في حواره مع محمود القيعي، بعنوان: الترجمة تشجع على التفاهم.

المبحث الثالث: تأسيس منهجية علمية ومادة معرفية في دراسة الغرب

إن الناظر في طبيعة علاقتنا بالعالم الغربي يدرك حجم التغاير والاختلاف بين المثقفين العرب، والتنازع في كيفية التعامل مع المنتج الغربي، وهو ما دفع عددًا من الباحثين لإنشاء علم مختص في دراسة الآخر يتيح له فهم الغرب وتحليله وفق أسس منهجية ونظريات علمية.

فالاستغراب يسعى إلى وضع قواعد منهجية تتيح له أن يبني معرفة واعية صحيحة عن العالم الغربي، ويفهم ما يحدث فيه من مجريات وتغيرات، ويكون قادرًا على استشراف حركته وتوجهاته، ويدرك الآلية المناسبة في التعامل مع ذلك.[1]

وهذا الهدف يحتاج إلى القيام ببناء مؤسسات ومراكز بحثية تعنى بدراسة الغرب ومتابعة التطورات فيه، وعقد الندوات واللقاءات سعيًا في تمخض رؤية واضحة في التعاطي مع العالم الغربي.

وإن هدف الاستغراب في تأسيس منهج علمي وتوفير مادة معرفية عن الغرب يسعى إلى القيام بعدد من الأمور، وهي:

١- الاهتمام ابتداء في وضع نظريات واضحة المعالم في فهم الآخر ودراسته، فالجهد لابد أن يكون مركزًا على تأسيس علم الاستغراب تأسيسًا محكمًا يستطيع الباحثون من خلاله الانطلاق منه في التعامل مع الغرب ودراسته، فالانطلاق من قواعد غير راسخة، وقضايا مبهمة يفضي إلى سوء الفهم والتصور، ومن ثم سوء الحكم.

وقد أكد المسيري بأن مشروع الاستغراب لابد أن يركز على "ضرورة الانتباه إلى المفاهيم التي تقوم عليها القواعد المنهجية لفكر الاستغراب، فدون استيعابها، وإدراكها لن يكون بالمقدور الدراسة الواعية لفكر الغرب، ومنظومته"[2].

فمن التحديات التي يواجهها الاستغراب غياب النماذج السابقة، والكتابات المعرفية المتخصصة في دراسة الغرب، فالمستشرق مثلًا لا يجد صعوبة في معرفة الشرق ودراسته؛ لوجود الموسوعات المتخصصة والكتابات المتعددة والمؤسسات المهتمة والداعمة، فهو لا يبتدأ من نقطة الصفر، بل يملك مخزونًا معرفيًا واسعًا يمكّنه من الانطلاق منه، والتجديد من خلاله.

لذا فإن الاستغراب ينبغي أن يخرج من الاجتهاد الشخصي والمبادرات الذاتية، " وألا يترك للصدفة أو يتم عشوائيًا، بل لابد أن يكون قرارًا واعيًا ومقصودًا من قبل

---

(١) انظر : سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي، لعادل عيساوي، ص ٦.

(٢) إشكالية التحيز للنموذج المعرفي الغربي الحديث، ص ٥٤ -٥٥.

الدول العربية...ويجب أن يشمل هذا القرار إنشاء وتجهيز مراكز ومعاهد ومكتبات للدراسات الغربية، وأن يتم تكوين جيل جديد من المستغربين العرب؛ كي يساهموا في دراسة المجتمعات والتاريخ والثقافات الغربية"[١].

فالاستغراب يهدف كذلك إلى مراجعة المناهج والأدوات التحليلية في العالم العربي؛ لمعرفة مدى قدرتها ومسايرتها للواقع الغربي وتعقيداته، والمساهمة في تطويرها واستثمارها.[٢]

٢- أن تقوم هذه الأسس المنهجية على الثقافة الإسلامية، والتراث المعرفي الضخم، فتكون نظريات منبعها ذاتي، وليست مستوردة من العالم الغربي، فمهمة الباحثين في علم الاستغراب دراسة تراث المسلمين وتاريخهم في التعامل مع العالم الغربي، وكشف المنهجيات المتبعة وتجديدها بما يتوافق مع التغيرات المعاصرة، وتحقيقها للطريقة الشرعية في دراسة الأمم الأخرى.

٣- تطبيق هذه النظريات والمنهجيات في معرفة الغرب، وإنتاج دراسات وأبحاث حوله وفق بناء علمي محكم؛ إذ ليس المقصود فقط مراكمة المعلومات حول الغرب أو الاكتفاء بالترجمات، وإنما إضافة محتوى علمي رصين يستطيع الكشف عن المعاني والوعي الغربي، ويدرك المشكلات فيه، يقول القرافي: " إن معرفة الإشكال علم في نفسه وفتح من الله"[٣]، فهدف الاستغراب أن يخرج باحثين متمكنين وقادرين على قراءة الغرب ونقده نقدًا علميًا، حيث ما زالت الساحة العربية والمكتبة الإسلامية محدودة في الدراسات العربية الخاصة بالعالم الغربي، وكثير من الاهتمام ينصب على الترجمات عن المفكرين الغربيين.[٤]

وهذا التطبيق للنظريات والأسس المنهجية يجعل خطاب الاستغراب في عملية تجديد وتحسين متواصل؛ إذ الكثير من جوانب النقص والقصور لا تُكتشف إلا بعد اختبارها وتطبيقها على المادة المعرفية.

٤- تحريك الوعي والعقل لتأسيس أطر جديدة لدراسة الغرب واستثمار هذه المعرفة بما يخدم الجوانب الإيجابية، ومن أبرز الأمثلة على إدراك أهمية ذلك في

---

(١) من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ٣١٩، وبحث: العالم الإسلامي وعلم الاستغراب النقدي، لأحمد كلاته، مجلة الاستغراب، ص ٢١٨، عدد١، ١٤٣٦ه، وبحث: في الحاجة إلى قواعد منهجية لفكر الاستغراب، لحسن عزوزي، ص ٢٥، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣هـ.

(٢) انظر: بحث: تداولية الاستغراب في الفكر العالمي المعاصر، للمبروك الشيباني المنصوري، ص ١٣٨ -١٣٩، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣هـ.

(٣) الفروق، (١٢١/١).

(٤) انظر : سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي، لعادل عيساوي، ص ١١، ومن نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ١٥١، في حواره مع سميح فرسون بعنوان: الاستغراب نقد للغرب.

الدراسات الشرعية، الاهتمام باحتياجات الأقلية المسلمة في بلاد الغرب في المسائل الشرعية، ودراسة النوازل المستجدة بناء على التغيرات الحديثة، وفتح الاجتهاد في القضايا الفقهية بناء على التصور الصحيح للواقع الغربي، وهو ما أسس لمجال خاص عرف بفقه الأقليات، والذي كثيرًا ما تصدر فتاواه من العلماء الذين عرفوا الواقع الغربي، وربما معايشته.(١)

٥- معالجة الصور المتخيلة عن الشرق والغرب، فكثير من الصور الذهنية والانطباعات الشخصية ليست انعكاسًا عن الواقع الحقيقي، بل هي متخيلات مخترعة سواء كانت من الغربي عن الشرق أو من الشرقي عن الغرب بدافع التشويه والاحتقار وربما المدافعة والمقاومة، ولكن بطريقة غير علمية، فالمشكلة تكمن في كون الإسلام لدى الغرب يعد مادة وموضوعًا دسمًا لتمثل متخيل أكثر منه موضوعًا للمعرفة الموضوعية.(٢)

فالاستغراب يسعى إلى محاولة كشف الواقع الغربي على حقيقته وفق آليات ومنهجيات تساعد في ذلك، كما يهدف إلى تصحيح الصورة المتخيلة عن الشرق في الذهنية الغربية وكشف تحيزاتها، وكذلك يكشف التحيز ضد الغرب والقراءات المجتزأة عنه، وغير المعبرة عن حقيقته لدى الشرق، وذلك امتثالا لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤)، ومن تطبيقات ذلك العملية ما رواه المستورد بن شداد -رضي الله عنه- : " تَقُومُ السَّاعَةُ والرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ. فَقالَ له عَمْرٌو: أبْصِرْ ما تَقُولُ، قالَ: أقُولُ ما سَمِعْتُ مِن رَسولِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّمَ-، قالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذلكَ، إنَّ فيهم لَخِصالًا أرْبَعًا: إنَّهُمْ لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وأَسْرَعُهُمْ إفاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ ويَتِيمٍ وضَعِيفٍ، وخامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وأَمْنَعُهُمْ مِن ظُلْمِ المُلُوكِ"(٥).

فالدراسات والكتابات التي منبعها وأساسها التشفي والانتقام والغضب غالبًا ما تكون دراسات غير موضوعية ولا علمية.(٦)

---

(١) انظر: سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي، لعادل عيساوي، ص ١٥٥.

(٢) انظر: مقال : الغرب والإسلام: الأنا والآخر...أو مسألة الغيرية، للجابري، مجلة فكر ونقد، ع٢، أكتوبر ١٩٩٧م، وبحث: المنطلقات التأسيسية للبحث الموضوعي في الاستغراب، لعز الدين معميش، ص ٤٩ – ٥٠، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣هـ.

(٣) الأنعام : ١٥٢.

(٤) المائدة : ٨.

(٥) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: تقوم الساعة والروم أكثر الناس. ح (٢٨٩٨).

(٦) انظر: سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي، لعادل عيساوي، ص ٣١٣، كنه الاستغراب، لعلي النملة، ص٣١.

يقول ابن تيمية: " فإن الرد بمجرد الشتم والتهويل لا يعجز عنه أحد، والإنسان لو أنه يناظر المشركين وأهل الكتاب لكان عليه أن يذكر من الحجة ما يبين به الحق الذي معه، والباطل الذي معهم. فقد قال الله عز وجل لنبيه -ﷺ- ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[2]...ولو أراد سفيه أن يرد على الراد بمثل رده لم يعجز عن ذلك"[3].

وكذلك ينبغي الابتعاد عن خلط الوقائع وحقائقها بالأماني والشعارات، مثل تكرار أفول الغرب والتبشير بسقوطه ونهايته دون البناء على حقائق حاضرة وشاملة، أو قصد التشويه لأغراض دعائية والاستناد إلى معلومات غير صحيحة أو مجتزأة اجتزاء لا يعبر عن حقيقة الفكرة، فيركز على جانب انحلال الغرب وفساده والعبثية والفراغ الروحي فيه وتسليط الضوء على ظواهر منفرة لما وصل إليه حال الغرب دون تدعيمه بحجج مؤكدة واستقراء واسع وتوازن في الطرح.

فالغاية العلمية للاستغراب تستبعد جانب الإساءة إلى الثقافات الأخرى والاستخفاف برموزها، والسخرية من أفعالها، وتدرسها بناء على ما لديها من قيم ومعايير علمية تنقد الجوانب السلبية في الغرب، وتثني على ما فيها من جوانب إيجابية، فالاستغراب يتطلب أخذ موقف نقدي من الغرب، وليس دوره الدفاع عنه أو الهجوم عليه.[4]

يقول كرم خلة: "لدينا وجهة نظر إنسانية، نحن لا نملك هذا التفكير العنصري الموجود في الغرب. العنصرية مرتبطة بالإمبريالية، مرتبطة بالنظرة من أعلى إلى أسفل...الباحث الغربي عندما يدرس مصر أو السعودية فإنه يشعر أنه أمام مجتمع بدائي، ويدرس هذا المجتمع من أعلى لأسفل. وهذه النظرة العنصرية لم تمت بعد...لكني لا أدعو إلى مجابهتها بعنصرية مضادة، بل بموقف إنساني"[5].

فكثير من الباحثين في خطاب الاستغراب يدرك بأنه من المهم عدم التأثر بالدراسات الاستشراقية في تناول الاستغراب، وأن الاستغراب له منهجه المستقل عن الاستشراق، يقول محمد النيرب وهو من المهتمين بدراسة الغرب: " أنا لا أريد أن يكون

---

(1) النحل : ١٢٥.

(2) العنكبوت : ٤٦.

(3) مجموع الفتاوى، (١٨٦/٤ -١٨٧).

(4) انظر: مقدمة في علم الاستغراب، لحسن حنفي ٧٨، وكنه الاستغراب لعلي النملة، ص ١٩، ومن نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص٤٤ – ٤٥، في حواره مع فؤاد زكريا بعنوان: الغرب لم يفرض ثقافته، بحث: في الحاجة إلى قواعد منهجية لفكر الاستغراب، لحسن عزوزي، ص ٣٥، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣هـ..

(5) من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ١٦٣، في حوار مع كريم خلة بعنوان: حذار من المركزية الشرقية.

الاستغراب مثلما كان الاستشراق، بل أريد أن يكون أرقى في التفكير، وأنبل في الأهداف. وينبغي أن يكون هدف هذا الاستغراب هو إعطاء القارئ العربي معرفة أفضل وأدق بالبلدان الغربية ودرجة تطورها. لابد أن يكون متميزًا ومختلفاً بصورة واضحة عن الاستشراق"[1].

فالاستغراب وإن كان يهدف إلى أن يكون الغرب موضوعًا للدراسة فهو يقوم على ذلك بمنهج الموضوعية لا السيطرة والعدوان، كما أنه ينبغي في ذلك التحرر من سلطة الثقافة الغربية، ولا يقصد تشويهها وتلفيق الأكاذيب حولها، فهو بذلك بعيد عن منهجية الاستشراق؛ وهذا الأمر يرجع لسببين اثنين:

السبب الأول: موضوعي حيث إن الظروف التي ساهمت في منهجية الاستشراق من الهيمنة والغلبة والاستعمار ليس حاضرة في العالم الإسلامي.

السبب الثاني: ذاتي وهو ما نحمله في ديننا من قيم أخلاقية تفرض علينا العدل والصدق، وتحرم الظلم والعدوان والجناية على الآخرين والكذب عليهم.[2]

وعدم التأثر بالاستشراق لا يعني عدم دراسته ونقده وبيان مكامن الخلل فيه، فنقد الاستشراق هو هدف من أهداف الاستغراب، ويدخل في ذلك نقد الاستشراق الديني من منظور الاستغراب الديني، وغير ذلك.

بل إن بعض الباحثين يرى بأن الهدف الأساس لعلم الاستغراب هو الرد على الاستشراق وخطابه، وأن مهمة الاستغراب هي الدفاع خلافًا لمهمة الاستشراق الهجومية، وأن على مشروع الاستغراب أن يحاول تصحيح الصورة النمطية المشوهة عن الإسلام والمسلمين، أو تضخيم سلوكيات على حساب السواد الأعظم، وأن يكون له دور محوري في مدافعة حملة التخويف من الإسلام بما يعرف بالإسلاموفوبيا.[3]

ومع ذلك فالاستغراب وإن كانت له مهمة دفاعية، فلا ينبغي قصره على ذلك، واختزال دوره في جانب واحد، فهو يهدف أيضًا لدراسة الآخر ونقده، وهو ما يمثل مهمة هجومية، وإن كانت مخالفة لمنهجية الهجوم الاستشراقي بكونها منضبطة بضابط العلم والعدل.

---

(1) من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ٢٨٨، في حواره مع محمد نيرب بعنوان: مع استغراب بدون استشراق، ص ٢٥٣. وانظر: كنه الاستغراب لعلي النملة، ص ٣٥، بحث: فكر الاستغراب في التداول المعرفي المعاصر، لعز الدين معميش، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، عدد ١٠٠، ١٤٤١ه، وبحث: الاستغراب والوحي، لبهجت التكريتي، ص٦، مجلة الآداب، جامعة بغداد، ع٦٨، ٢٠٠٥م.

(2) انظر: من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ٢٨٨، ومقدمة في علم الاستغراب، لحسن حنفي ٣٢.

(3) انظر: كنه الاستغراب لعلي النملة، ص ٦١، وبحث: العالم الإسلامي وعلم الاستغراب النقدي، لأحمد كلاته، ص ٢١٨، مجلة الاستغراب، عدد١، ١٤٣٦ه، وبحث: في الحاجة إلى قواعد منهجية لفكر الاستغراب، لحسن عزوزي، ص ٣٧، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣هـ..

بل حتى دراسة الاستشراق ونقده لا يمثل فقط دورًا دفاعيًا، فجزء من فهم العقلية الغربية وتناولها للحضارات الأخرى تكشفه الكتابة الاستشراقية، ولذلك فإن الهجوم على الاستشراق وفضح أغراضه الخفية جعل كثيرًا من الباحثين الغربيين المتأخرين يتهربون من هذه التسمية، ويستبدلونها بتسميات أخرى لا تحمل المضامين السلبية التي كُشفت في الاستشراق والتصقت به.(١)

بل إن من الباحثين من يرى بأن انحسار الاستشراق التقليدي، وتهرب الكثير من الباحثين الغربيين منه هي اللحظة المناسبة لبروز علم الاستغراب ليتحقق التوازن المقصود من العلاقة بين العالم الغربي والشرقي.(٢)

وعلى هذا فإن ما يسوقه بعض الباحثين الغربيين بأن الاستغراب هو حركة معادية للغرب، ينافي الأهداف التي يسعى إليها علم الاستغراب، وهو ما يفسر تبرم الغربي وأنفته من أن يكون موضوعًا لدراسة الآخر، فمن قول أحد الباحثين الغربيين: "ما ندعوه بالاستغراب هو تلك الصورة التي رسمها للغرب أعداؤه، وقد نزعوا عنه الطابع الإنساني"(٣).

ولذلك فبعض المفكرين بيّن بأن الغاية من وجود الاستغراب هو ندرة الدراسات الموضوعية عن الغرب في الساحة العربية العلمية والثقافية، فالحاجة ماسة لوجود كتابات علمية رصينة، وأن الاستغراب "يتعامل مع منتجات الثقافة الغربية كموضوعات للعلم والمعرفة قبل اتخاذ مواقف التأييد أو الإدانة"(٤).

٦- مواكبة التغيرات التي تحصل في الغرب، ومتابعة التطورات العلمية والفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية؛ إذ إن عددًا من الكتابات العربية عن الغرب والترجمات تختص بحقبة تاريخية معينة في الغرب ليس لها تأثير فعلي على الواقع الحالي، بل قد توجد بعض الصراعات والخلافات الفكرية والمؤلفات النقدية عن الغرب ومذهبياته مما تجاوزه الغرب نفسه، واستجدت فيه نظريات وأفكار لم تسايرها الدراسات العربية كشفًا وتحليلًا ونقدًا(٥).

٧- نقد قيم الفكر الغربي وآثارها خاصة السائد منها عالميًا، وهذا النقد يكون عبر ثلاثة مسارات:

---

(١) انظر: الشرق والغرب: منطلقات العلاقات ومحدداتها، لعلي النملة، ص ١٥١-١٥٩.

(٢) من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ٩.

(٣) الاستغراب: موجز تاريخ النزعة المعادية للغرب، ص١٧، وانظر: بحث: تداولية الاستغراب في الفكر العالمي المعاصر، للمبروك الشيباني المنصوري، ص١٤٢-١٤٤، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣هـ..

(٤) من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ٣١٤، وانظر: كنه الاستغراب لعلي النملة، ص ٢٥.

(٥) انظر: مجلة الاستغراب، المقدمة، ص ٢، عدد١، ١٤٣٦ه.

المسار الأول: نقد الغرب من خلال الثقافة الذاتية الإسلامية والعربية كما سيأتي موسعًا في مبحث الاستقلالية الفكرية.

المسار الثاني: الاستفادة من نقد مفكري الثقافات الأخرى للقيم الغربية، وترجمة كتبهم، وعقد الندوات واللقاءات معهم.

المسار الثالث: نقد الغرب لذاته من خلال كتابات بعض مفكريهم، وهو ما يكشف جوانب غامضة وآثار خفية لا يكاد يدركها إلا من عاش في الغرب، وكان جزءًا من ثقافته وأدرك مكامن الضعف والقوة فيه.[1]

(1) انظر: مجلة الاستغراب، المقدمة، ص ٢، عدد١، ١٤٣٦هـ.

المبحث الرابع: تحقيق الاستقلالية الفكرية والإبداع المعرفي

إن مما لا ريب فيه أن تحقق الاستقلال الفكري والإبداع المعرفي مرهون ابتداء بتحرير الذات وتخليصها من الانهزامية والفراغ تجاه الغرب، وهو ما جاء التركيز عليه في المبحث الأول.

فخطاب الاستغراب يسعى إلى قراءة الغرب قراءة مبنية على ما عند الحضارة الإسلامية من مقومات وإمكانات معرفية، فإذا كان الاستشراق يسعى إلى قراءة العالم الشرقي وفق منطلقاته وثقافته، ويزود العالم الإسلامي برؤيته له، فإن على المفكرين العرب والمسلمين أن يحققوا الاستقلال الفكري في قراءتهم لنتاج الغرب وثقافته، وأن ينطلقوا في ذلك وفق الرؤية الإسلامية الشاملة، وأن يشاركوا العالم بما توصلوا إليه من آراء ونظريات حول غيرهم وفق رؤيتهم وثقافتهم.(١)

والاستغراب بناء على ذلك يهدف إلى تخليص كثير من المسلمين من التبعية الثقافية والتقليد الأعمى، وهو ما حذر منه النبي –ﷺ– فقال: " لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حتَّى لو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قالَ: فَمَنْ؟"(٢).

فمن المهم ألا تقع الدراسات الاستغرابية تحت ضغط رد الفعل على الاستشراق وتقليد منهجياته، ومحاولة محاكاته، وينبغي التحرر منه، وهذا ما دفع بعض المفكرين للتحفظ على إنشاء علم الاستغراب، والتخوف من أن يستخدم أدوات الاستشراق ومنهجياته فيقع في التحيز والتعصب والتعالي، وأنه سيكون رد فعل ناقم عن استفحال الرؤية الاستشراقية وتمكنها.

فإدوارد سعيد رغم جهده في كشف التحيز في الاستشراق فإنه كان يقول بأن: "الرد على الاستشراق ليس الاستغراب"(٣)، ولا يرى في الاهتمام بالاستغراب مادة مجدية، على خلاف حسن حنفي الذي كان يرى أن الاستغراب هو الرد على الاستشراق ومقابلته(٤).

فاستعمال منهجيات الاستشراق في دراسة العالم الغربي هو في ذاته تبعية خفية، وهو ما ينافي هدف خطاب الاستغراب في تحقيق الاستقلالية وتأسيس منهجيات ذات بعد ذاتي.

---

(١) انظر : سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي، لعادل عيساوي، ص ٢١.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ح (٣٤٥٦)، ومسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، ح (٢٦٦٩).

(٣) الاستشراق، ص ٤٩٧.

(٤) انظر: مقدمة في علم الاستغراب، ص٣٣.

فالهدف من الاستغراب إذن لابد أن ينصب على الاستفادة من النظام المعرفي الإسلامي، ويستوعب مشهد العلاقة كاملة وتطوراتها بين الشرق والغرب، فالغاية هي بناء نموذج استرشادي لفهم الغرب ودراسته دراسة متوازنة، تعزز من فهمنا لعالمه في المجالات المختلفة المعرفية والفكرية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية.[1]

وهذا الهدف وتحقيقه طريق في السعي إلى إقامة الشهادة على الناس المناطة بالمسلمين، وهو من مقتضيات وسطية الإسلام، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾[2] يقول ابن عاشور: " والآية ثناء على المسلمين بأن الله قد ادخر لهم الفضل وجعلهم وسطاً بما هيأ لهم من أسبابه في بيان الشريعة بياناً جعل أذهان أتباعها سالمة من أن تروج عليهم الضلالات التي راجت على الأمم...والشهادة على الأمم تكون لهم وعليهم، ولكنه اكتفى في الآية بتعديتها بعلى إشارة إلى أن معظم شهادة هذه الأمة وأهمها شهادتهم على المعرضين؛ لأن المؤمنين قد شَهِد لهم إيمانهم، فالاكتفاء بعلى تحذير للأمم من أن يكونوا بحيث يشهد عليهم، وتنويه بالمسلمين بحالة سلامتهم من وصمة أن يكونوا ممن يشهد عليهم، وبحالة تشريفهم بهاته المنقبة وهي إثقاف المخالفين لهم بموجب شهادتهم."[3]، وهو ما يدل على أن لدى المسلمين من أسباب إصابة الحق وإدراك ما عند الأمم الأخرى من انحرافات ما يفوق ما عند الأمم الأخرى.[4]

فدراسة الغرب ليست بهدف استيراد نموذجه الحداثي وتطبيقه على المجتمعات المسلمة، وهذا ما يميز الاستغراب عن التغريب، فالتغريب عملية محاكاة وتقليد وترديد لما عند الغرب بخلاف الاستغراب الذي يسعى في دراسته للعالم الغربي في تحقيق الاستقلال الفكري، واكتشاف السنن والعلل التي ساهمت في تفوق الغرب في بعض المجالات، وهو ما يؤكد بأن التغريب قائم على التقليد، بخلاف الاستغراب الذي يسعى إلى التجديد والإبداع.[5]

وفي هذا رد على من نعت الاستغراب بأنه مصطلح يدل على الميل نحو الغرب إعجابًا أو تقليدًا أو دراسة، فجعل الإعجاب والتقليد الذي يمثل ميلًا ظاهرًا بجانب

(1) انظر : سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي، لعادل عيساوي، ص ٢٥.
(2) البقرة : ١٤٣.
(3) التحرير والتنوير، (٢/ ١٨ -٢٠).
(4) انظر: بحث: الاستشراق والاستمزاغ والاستعراب والاستغراب مقاربة مفاهيمية، لجميل حمداوي، ص ١٣٠، مجلة دراسات استشراقية، ع ١٩، ٢٠١٩م.
(5) انظر: بؤس الدهرانية، لطه عبدالرحمن، ص ١٣١.

الدراسات التي تمثل الاستغراب الحقيقي دون ميل، فالإعجاب والتقليد داخل في التغريب لا في الاستغراب.[١]

فالاستغراب في حقيقته " تحرير للذات العربية...والانتقال بالفكر العربي المعاصر من مرحلة الترجمة والنقل والشرح والتلخيص إلى مرحلة الإبداع والخلق والاستقلال الثقافي وإكمال حركة التحرر العربي بالتحرر الثقافي"[٢].

ومسؤولية المفكر المسلم "أن يشتغل بنقد هذا الفكر الواحد الذي أخذ يتغلغل بقوة بين بني قومه، ينزع عنهم مظاهر التميز والخصوصية، ويقطع عنهم بالتالي أسباب العطاء والإبداع؛ إذ لا عطاء بغير تميز، ولا إبداع بغير خصوصية"[٣].

وهذا الاستقلال الفكري والإبداع المعرفي يتجلى في عدد من النقاط:

١- أن الاستغراب في سعيه للاستقلال الفكري وتحقيق الإبداع سيكون في مواجهة مع التغريب الذي يناقض هذا الهدف، فالاستغراب وإن كان ينطلق ابتداء في الاهتمام بدراسة الغرب وثقافته فإن جزء من دراسته تنصب في الرد على المتأثرين بالغرب والمقاولين له في البلاد العربية.[٤]

وهذا ما دفع بعض المتأثرين بالثقافة الغربية والمقلدين له إلى مهاجمة الاستغراب وبالسخرية منه، حيث يقول أحدهم: " كيف يمكن لهذا العلم الغريب الشكل أن ينهض على أسس قويمة إذا كنا عاجزين حتى الآن عن استيعاب الثورات اللاهوتية والابستمولوجية (المعرفية) والفلسفية الغربية للفكر الغربي، وإذا كنا عاجزين عن إحداث مثلها في ساحة الفكر العربي؟ وكيف يمكن لنا أن نقف موقف الند من الغرب إذا كنا لا نملك أبسط المقومات حتى مشروع الترجمة لم نقم به كما ينبغي"[٥].

فالندية مع الغرب لا تكون بالتبعية؛ إذ هي تكرس الخضوع وتزيد الأمة سوء، "ولا ندية بغير استقلال؛ أما مقلدو الحداثة الفكرية، فهم أبعد ما يكون عن الشعور بهذه الندية، إذ يُحسون بتمام العجز من أنفسهم عن أن ينافسوا أرباب الحداثة على أفكار بعينها، بغية أن يسبقوهم إليها أو يبزوهم فيها، بل إنهم يأخذونها عنهم أخذ تصديق وتسليم، كما لو كانوا يأخذون عنهم تعاليم دينهم"[٦].

---

(١) انظر : سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي لعادل عيساوي، ص ١٨٦-١٨٧، وكنه الاستغراب، لعلي النملة، ص٦١.

(٢) من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ٢٩٤، في حواره مع حسن حنفي.

(٣) الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، لطه عبدالرحمن، ص ١٧.

(٤) انظر: مقدمة في علم الاستغراب، لحسن حنفي ص ٢٢، من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ٧٤، في حواره مع أنور عبدالملك بعنوان: أنا دائما مع ريح الشرق .

(٥) مقال: علم الاستغراب لا يضير الغرب بل يرتد علينا بأفدح الأخطار، لهاشم صالح، جريدة الحياة، عدد ١١٧٤٠، ١٤١٥ه، وانظر: مبحث المعركة مع حسن حنفي، من كتاب الانسداد التاريخي، لهاشم صالح.

(٦) بؤس الدهرانية، لطه عبدالرحمن، ص ١٣٣.

٢- صناعة نماذج ورموز ثقافية أصيلة تثبت قدرة الباحثين المسلمين على الإبداع المعرفي المؤسس على منطلقات الثقافة الإسلامية، وترسخ في عقول الجيل السلم إمكانية ذلك وتشجع عليه؛ لأن الاعتقاد السائد لدى شريحة واسعة من المفكرين العرب أن التميز الفكري يبدأ بذكر أكبر قدر من المفكرين الغربيين والانتماء إلى مذاهبهم، وأن الإبداع لابد أن يكون مصدره المدراس الغربية واستخدام منهجياته، والتسمي بمذهبياته، ولذا فقد " تحولت مساحة كبيرة من ثقافتنا المعاصرة إلى وكالات حضارية للغير، وامتداد لمذاهب غربية: اشتراكية، ماركسية، ليبرالية، قومية، وجودية، وضعية، شخصانية، بنيوية، سيريالية، تكعيبية..الخ، حتى لم يعد أحد قادرًا على أن يكون مفكرًا أو عالمًا أو فنانًا إن لم يكن له مذهب ينتسب إليه"[١]، بل صار بعض الفكرين العرب منهمكًا في المعارك الفكرية بين المدارس الغربية ومنخرطا فيها، مع أنه لم ينشئها ولم يكن طرفًا فيها، وليست تعبيرًا عن أية واقع عنده.

فوجود دراسات وأبحاث عميقة مستقلة عن الغرب تعزز الثقة بالنفس وتشجع الغير على الإقدام على النقد والتقويم.

٣- من مهام علم الاستغراب رد ثقافة الغرب إلى حدوده الطبيعية بعد انتشاره خارج حدوده ابتداء من الاستعمار وانتهاء بالعولمة من خلال السيطرة على وسائل الإعلام وهمينتها، فمن المهم القضاء على أسطورة أن الثقافة الغربية هي الثقافة العالمية، وأن الانطلاق من القيم والمعايير والمثل الغربية هو انطلاق من المثل الإنسانية، وأن الغرب يمثل نموذج الكمال المتوخى، والتي ساهم في توسيع هذه النظرة كثير من المؤسسات والهيئات والمنظمات التي تتسمى بالعالمية أو الدولية أو الإنسانية وما هي إلا انعكاس لقيم الثقافة الغربية وتعبير عنها.

فثقافة الغرب بمنظار المعرفة يمثل نمط تفكير تحقق في إطار تاريخي معين، وفي نطاق جغرافي خاص متأثر بالوقائع والتحديات والمشكلات المحيطة به، ولا يمثل نمطًا عالميًا، ورؤية مطلقة في الفهم والتفسير.[٢]

وهذا يعني بأن الاستغراب لديه مهمة صعبة في إعادة كتابة الكثير من المفاهيم المختلفة والقراءات التاريخية وغيرها من المجالات التي انطلقت من المركزية الغربية، وإعادة عرض التاريخ والمفاهيم باستقلالية عن النظرة الغربية، ومساهمة الثقافات الأخرى في قراءة وقائع التاريخ والمظاهر الثقافية، وعلى هذا فإن دراسة الفكر الغربي

---

(١) مقدمة في علم الاستغراب، لحسن حنفي ٢٤.

(٢) انظر: بحث: تداولية الاستغراب في الفكر العالمي المعاصر، للمبروك الشيباني المنصوري، ص ١٤١، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣هـ، وبحث: الاستغراب والوحي، لبهجت التكريتي، ص٢، مجلة الآداب، جامعة بغداد، ع٦٨، ٢٠٠٥م.

ونتاجه على أنه تاريخ وليس خارج التاريخ، وهو يمثل تجربة بشرية ومسارًا حضاريًا مثل غيره من الحضارات المختلفة.[١]

فعلى سبيل المثال فإن كثيرًا من الثنائيات التي فرضتها المركزية الغربية في تقسيم العالم كتقسيمه إلى برابرة ومتحضرون، ديمقراطيون ومستبدون، تسهم في ترسيخ مفهوم الاستعلاء والفوقية الغربية، مما يلقي على المفكرين المسلمين مسؤولية تصحيح هذه التقسيمات، وليس تحولها عكسيًا بحيث يُتهم الغرب بأنه متخلف ونحن المتحضرون، بل بإبداع تقسيمات علمية موضوعية بعيدة عن حلبة الصراعات والمناكافات.

وكذلك فيدخل في ذلك عدم الاستسلام للمركزية الغربية، وذلك بمحاولة إقناع الغرب بأن قيمنا وواقعنا وثقافتنا وفق تقسيماتهم مساوية لحالهم أو أفضل، مثل المقارنة بالحريات والمساواة والعلاقات وفق النظرة الغربية؛ لأننا "عندئذ نمارس ضغوطاً لإثبات صحة قيمنا المؤكِّدة أو المعاد تأكيدها من زاوية المعايير التي وضعها الأقوياء...فعندما يعمل القائمون على تخطيط المقاومة الثقافية على تأكيد ثقافة بعينها فإنهم في واقع الأمر يعيدون إضفاء الشرعية على مفهوم القيم العالمية"[٢].

٤- من غايات الاستغراب في تحقيق الاستقلال الفكري والإبداع المعرفي إدراك الأفكار والنظريات الغربية بأسسها وفلسفاتها وآثارها، وبيان ما يقابلها في الثقافة الإسلامية ويكون بديلًا عنها، بدلًا من الاتكال على الثقافة الهجينة التي يتبعها بعض الباحثين من محاولة استنبات الفكرة الغربية في الأرضية الإسلامية فيفرغ المعاني الشرعية من محتواها ليضع مضموناً غربيًا، فينشئ نوعًا من الازدواجية والاضطراب، وعلم الاستغراب يسعى لفك هذا الاشتباك غير المنطقي.[٣]

(١) انظر: مقدمة في علم الاستغراب، لحسن حنفي ٣٦ – ٤٠، وبحث: العالم الإسلامي وعلم الاستغراب النقدي، ص ٢٢٠- ٢٢١، مجلة الاستغراب، عدد١، ١٤٣٦هـ، .

(٢) انظر: بحث الاستغراب القسري: في جدل التثاقف بين المركز والهوامش، لنجلاء مكاوي، مجلة الاستغراب، ص ٢٨٢، عدد١، ١٤٣٦هـ.

(٣) من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ٣٠٩.

المبحث الخامس: التمكن من أسباب القوة

المتابع للوضع القائم للعلاقة بين الغرب والعرب يدرك اختلال التوازن بينهما في الضعف والقوة بين طرف غربي يرى نفسه المركز والنموذج الذي يجب أن يحتذى به، وطرف عربي ما زال يتلمس طريق التعامل مع المتغيرات والحضارات السائدة، يقول جابر عصفور: "إن التحديق في الغرب بعيون عربية انطوى على صدمة المعرفة بمدى تخلف الأنا القومية عن الآخر الذي يواجهنا، فالعلاقة بيننا لم تبن على مبدأ التساوي والتكافل بين طرفيها، لذلك لم نر الغرب بطريقة صحيحة، ولم نر أنفسنا بطريقة صحيحة أيضا"[1].

ودراسة الغرب وفهمه لامتلاك القوة ودفع شره يدخل في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[2]، قال ابن سعدي: "أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأْي: والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتَعلُّم الرَّمْيِ، والشجاعة والتدبير"[3]، ومن المعلوم أن القوة لها جوانب متعددة خاصة في العصر الحديث من القوة العسكرية والاقتصادية والعلمية والإعلامية وغيرها.

وقد أمر سول الله ﷺ زيد بن ثابت ﷺ فقال له: " يَا زَيْدُ تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ ، فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابٍ "[4].

إن دراسة الغرب وفق أطر علمية وتمكّن معرفي تسهم في التعامل معه تعاملًا واعيًا بدلًا من حالة التخبط والعشوائية التي يتنازعها أطراف متباينة بين منكر لمكامن القوة في الغرب وأسباب غلبته، نائيًا بنفسه عن معارفه ومنتجاته، وضاربًا على نفسه عزلة عنه، وبين طرف نقيض آخر يرى بأن أخذ القوة هو التأسي بما لدى الغرب، وتبني ما عنده دون تمحيص أو منهجية نقدية مسخرًا وقته وتأليفه للدعاية له.

---

(1) ندوة: الغرب بعيون عربية، مجلة العربي، عدد ٥٤٤ في شهر مارس ٢٠٠٤م.

(2) الأنفال : ٦٠.

(3) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٢٤.

(4) أخرجه البخاري معلقا بصيغة الجزم، كتاب الحكام، باب ترجمة الحكام، وهل يجوز ترجمان واحد، والترمذي، أبواب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في تعلم السريانية، ح (٢٧١٥)، وأبو داود، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، ح(٣٦٤٥)، وأحمد، ح(٢١٦١٨). وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

ولذلك فإن تأسيس الاستغراب ليباشر وضع قواعد وآليات للتعامل مع المنجز الغربي والاستفادة منه، والأخذ بأسباب القوة، دفع كثيرًا من المفكرين للدعوة إلى قيام علم يكون مهموماً بذلك، ويستطيع مجاراة التغيرات الإيجابية ومواكبتها؛ لأن التفاعل المعرفي والسباق العلمي ما زال متأخرًا.(١)

وامتلاك المعرفة والقدرة على فهم الطرف الآخر فهمًا صحيحًا من محققات القوة، فمما يروى أن عمر بن الخطاب ﷺ حين فتح الأمصار كتب إلى حكيم من حكماء العصر: " إنا لناس عرب، وقد فتح اللّه علينا البلاد، ونريد أن نتبوأ الأرض، ونسكن البلاد والأمصار، فصف لي المدن وأهويتها ومساكنها، وما تؤثِّرُه التربة والأهوية في سكانها"(٢)، فجعل من أسباب التمكن معرفة طبيعة البلد وسكانه.

فالقوة ليس متعلقها فقط مادي، بل مبناها وأساسها علمي، فالعلم وامتلاك الحجة له سلطة على النفوس قد تفوق في قدرتها السلاح المادي؛ بل حتى السلاح المادي قائم على المعرفة والعلم؛ ولذلك فكثيرًا ما جاء في القرآن تسمية الحجة والبينة والبرهان بالسلطان، قال تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾(٤)، قال أبو هلال العسكري: "وإنما سميت الحجة سلطاناً؛ لأنك تقوى بها على خصمك"(٥) .

وفي تاريخ العصور الإسلامية السابقة كانت معرفة الآخر تميل لصالح الحضارة الإسلامية، وكان العلماء يحثون على تعلم ما عند الأمم السابقة؛ لامتلاك زمام القوة، يقول ابن الفقيه: " ولولا اغتراب المغتربين ما عرف ما بين الأندلس إلى الصين، ولا ردم الإسكندر السدود، ودوّخ الأقاليم، ومدّن المدن، وبخع له ملوكها بالطاعة، ولا قتل دارا بن دارا، ولا أسر الأساورة، ولا جمعت الملوك بين الصفائح اليمانية، والقضب الهنديّة، والرماح البلوصيّة، والأسنّة الخزريّة، والأعمدة الهرويّة، والأجرزنة الأسروشنيّة، والخناجر الصّغديّة، والسروج الصينيّة، والدروع السابريّة والجواشن الفارسيّة...ولا علم أن ببلاد المغرب ومصر عجائب لا تكون إلّا بها مثل منارة الإسكندريّة وعمود عين الشمس، والهرمان وجسر أذنة، وقنطرة سنجة، وكنيسة الرّها، وسور أنطاكية"(٦).

---

(١) انظر : سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي، لعادل عيساوي، ص ٦.

(٢) مروج الذهب، للمسعودي، (٢/ ٦١)، المواعظ والاعتبار، للمقريزي، (١/ ٩٤).

(٣) يونس: ٦٨.

(٤) الصافات : ١٥٦ .

(٥) الوجوه والنظائر، ص٢٥٥.

(٦) البلدان، ص١٠٨ – ١٠٩.

وهذا التمكن العلمي والسلطة المعرفية هي ما سعى المستشرقون لقلب الموازين فيه من خلال الرحلة والدراسة والبحث والاطلاع على تراث المسلمين وفهم مجتمعاتهم، مما أنتجوا من خلاله نتاجًا ضخمًا وتفاصيل كثيرة في مجالات متعددة، بل إن المستشرق لا يلقب بذلك سابقًا إلا إذا كان "متبحرًا في لغات الشرق وآدابه"[١]، وبفضل هذه الجهود والدعم الكبير لها فقد مالت كفة المعرفة لصالحهم، وهو ما يسعى الاستغراب لمعالجة هذه الإشكالية التي ظهرت في القرون المتأخرة.[٢]

فإدراك هذا التفوق الغربي في دراسة الآخر وفهمه يعد دافعًا رئيسًا، ومسؤولية واجبة تجاه العلماء والمفكرين لبذل جهد معاكس لهذه الدراسات، وظهور أسماء بارزة، ومتخصصين مشتغلين بمدافعة هذا الاستشراق، ومقابلته بعلم الاستغراب.

فالفجوة المعرفية عن الآخر ما زالت واسعة بيننا وبين العالم الغربي، والاستغراب يمثل محاولة في ردم هذه الفجوة في المجالات العلمية المتنوعة.

فدراسة الحضارة الغربية وإدراك مكامن القوة فيها واستثمارها فيما يحقق النفع على الدول الإسلامية يعد غاية يسعى الاستغراب لتحصيله، وهي كذلك تسهم في تحديد موقعنا في التاريخ.[٣]

بل إن بعض الباحثين جعل جزءًا من عدم نهوض الدول العربية التي تخلصت من نير الاستعمار هو تركيزها على حركات التحرر السياسي دون أن يوازيه في الحماسة والقوة حركات تحرر ثقافي من هيمنة الثقافة الغربية ومذهبياتها واتجاهاتها وفلسفتها، فظل كثير من مفكريها عالة على العالم الغربي، وأداة من أدواته.[٤]

ولذلك فإن امتلاك القوة الثقافية والأخذ بزمام مواجهة اتساع الثقافة الغربية واكتساحها يعد هدفًا مركزيًا من أهداف الاستغراب.

ويتحقق مقصود الاستغراب في امتلاك القوة المعرفية في مواجهة الغرب من خلال عدد من الجهود، وهي:

١- الاهتمام بإنشاء مراكز بحثية ودراسات استراتيجية لدراسة الغرب؛ إذ ما زالت المراكز في العالم العربي تمثل عددًا ضئيلًا في مقابل المراكز والجهات البحثية في العالم الغربي، يقول إدوارد سعيد: "إنها لصدمة موقظة أن نجد على سبيل المثال أنه فيما توجد عشرات من المنظمات لدراسة الشرق العربي والإسلامي في الولايات

(١) المستشرقون البريطانيون، لآرثر جون آربري، ص٨.

(٢) انظر : سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي لعادل عيساوي، ص ١٠٤.

(٣) انظر: الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري، لحسن بدران، ص٣.

(٤) من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ٢٩١.

المتحدة، فليس ثمة مؤسسة واحدة في الشرق لدراسة الولايات المتحدة، وهي أعظم المؤثرات الاقتصادية والسياسية إطلاقًا في المنطقة. وأسوأ من هذا، لا يكاد يكون ثمة معهد ذو مكانة، حتى متواضعة في الشرق مكرس لدراسة الشرق نفسه"[١].

وهناك محاولات جادة في مساهمة بعض رجال الأعمال في دعم المراكز المعنية بذلك سواء كانت في العالم العربي أو الغربي، ففي موقع إحدى المؤسسات المانحة لعدد من هذه المؤسسات ذكرت بأن: "مراكز الدراسات التي أسسها أو دعمها رجل الأعمال السعودي من خلال مجموع هذه الهبات تهدف إلى ربط العلاقات والمثاقفة بين الشرق والغرب، وتعريف الغرب بالإسلام"[٢].

٢- تأهيل المتخصصين والباحثين تأهيلًا عميقًا في دراسة الغرب وفهمه ونقده، وامتلاك القدرة على الحوار والمناقشة والمواجهة بما يناسب العقلية الغربية، ويؤثر على رؤيتها للعالم الإسلامي.

كما أن من دور المهتمين بالشأن الغربي ودراسته أن يسعوا إلى إقناع ذوي المكانة والمال بأهمية هذا العلم وإعطاء صورة واضحة في منهجية التعامل العلمي مع الغرب من منطلقات موضوعية منتمية إلى الثقافة الوطنية بما يدفع اللبس والتخوفات التي قد تمنع أصحاب القرار والمال من دعم الدراسات الاستغرابية.[٣]

٣- أن الاستغراب يهدف إلى تهيئة شخصيات ومفكرين لديهم الثقة في مواجهة الآخر والاستدراك عليه ونقده، فهي تسعى للقضاء على الظهور بمظهر الضحية أمام الآخر، وتتبذ المساءلة والمحاكمة الثقافية من الغرب كأن الثقافات الأخرى في قفص الاتهام وتسعى لتبرئة ذاتها.

فالغرب في وسائله المختلفة من خلال الكتابة عن العرب والمسلمين يمارس دور الأستاذية له، والمراقب لأفعاله، ويجعل ثقافته ومفاهيمه حاكمة على غيره، والاستسلام لهذه النظرة تكرس هذا الأمر وتزيده سوء، ولذلك فإن الاستغراب يساعد على أن تكون العلاقة بين الشرق والغرب علاقة ندية، علاقة بين مركز ومركز، لا بين مركز وطرف، علاقة ثنائية الجانب بدلًا من كونها علاقة أحادية الجانب.[٤]

ولذلك فجزء من مهمة علم الاستغراب ومؤسساته أن يفرض باحثيه ومفكريه على الواقع الغربي ومؤسساته؛ لأن كثيرًا من مراكز البحث والندوات في العالم الغربي

(١) الاستشراق، ص ٤٩١.

(٢) سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي، لعادل عيساوي، ص ٣٣٧.

(٣) انظر: كنه الاستغراب لعلي النملة، ص ١١٠.

(٤) انظر: مقدمة في علم الاستغراب، لحسن حنفي ٣٤.

تجعل الممثل للثقافة العربية بعض العرب المهاجرين الناقمين على ثقافتهم ومجتمعاتهم، وهذا الحوار في حقيقة أمره حوار عمن يشابه الغرب لا حوار عمن يقابلهم ويختلف معهم.[١]

٤- أن يكون نظر الباحث المسلم وتركيزه في معرفة ما عند الغرب من مقومات القوة والحضارة ودراسة ذلك، والاستفادة منه، ففي الأثر: " الحِكمةُ ضالَّةُ المُؤمنِ، حيثُما وجَدَها فهو أحَقُّ بها "[٢]، فالاعتراف بما لدى الآخر من عناصر التفوق ليس عيبًا إذا كان بهدف الاستفادة من تجربته وتعزيز ذلك في أمته.

والقبول والرفض لما عند الغرب ينبغي أن يكون مبنيًا كما ذكر سابقًا على أسس واضحة ومتطلبات حقيقية قائمة على الاحتياج العربي وظروفه الخاصة، وليست انعكاسًا لمتطلبات الغرب واحتياجاته والتي تأخذ في العادة منحى دوليًا.[٣]

٥- أن وجود مقومات القوة في مواجهة الثقافة الغربية، وظهور نماذج شخصية واعتبارية، مما يسهم في توحيد كثير من الجهود العربية والإسلامية في التعامل مع الغرب، والمشاركة الفاعلة بينهم، وتأسيس مؤسسات ومراكز مشتركة بدلًا من حالة التشظي والاختلاف التي تزيد من حالة الضعف.[٤]

---

(١) من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، لأحمد الشيخ ص ١٢.

(٢) أخرجه الترمذي، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ح(٢٦٨٧)، وابن ماجه، أبواب الزهد، باب الحكمة، ح(٤١٦٩). قال الترمذي: هذا حديث غريب. وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٨٨/١)، وقال الألباني في ضعيف الجامع ص٦٢٥: ضعيف جدا.

(٣) انظر: بحث: المنطلقات التأسيسية للبحث الموضوعي في الاستغراب، لعز الدين معميش، ص ٥٦، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، مجلد ٣٩، عدد٢، ١٤٤٣ه، وبحث: الاستغراب: البعد الديني في الاستغراب المعاصر، لحسن البارقي، ص ١٦١ ، مجلة جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية، ع٣٨، ٢٠١٦م، وبحث: الاستشراق والاستمزاغ والاستعراب والاستغراب مقاربة مفاهيمية، لجميل حمداوي، ص ١٣٠، مجلة دراسات استشراقية، ع ١٩، ٢٠١٩م.

(٤) انظر: مجلة الاستغراب، المقدمة، ص ١١، عدد١، ١٤٣٦ه.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث، يمكن أن نصل إلى عدد من النتائج:

١- أن مصطلح الاستغراب ما زال في طور التشكل، وقد اتجه في الكتابات المتأخرة إلى الاتجاه المعني بدراسة الغرب ومناهجه دراسة ذاتية، مبتعدًا بذلك عن مصطلح التغريب ومفهومه.

٢- أن خطاب الاستغراب يسعى إلى أن تكون العلاقة مع الغرب قائمة على أساس التفاهم والتعارف، وينبذ دعوات العنف والعدوان والظلم من جميع الأطراف.

٣- أن من أهداف الاستغراب تحرير الذات العربية وتخليصها من الانهزامية الثقافية، وتعزيز الانتماء الذاتي، واعتزازها بموروثها الثقافي، والانطلاق منه في دراسة الآخر.

٤- من الأهداف التي يطمح الاستغراب إلى تحقيقها بناء منهج علمي متين في دراسة الغرب، وتوفير مادة معرفية عميقة وموضوعية تفيد الباحثين والمهتمين بالشأن الغربي، ومعالجة التصورات المشوهة والمتخيلات عن الواقع العربي أو الغربي.

٥- الاستغراب يسعى إلى دعم الاستقلال الفكري في التعاطي مع القضايا الغربية، وتحقيق الإبداع المعرفي والمشاركة الفاعلة في معالجة القضايا الدولية والمشكلات العالمية من خلال طرح وجهات نظر غير متحيزة للعالم الغربي ونظرياته ومشكلاته وهمومه.

٦- يسعى الاستغراب إلى خلق حالة من التوازن بين العالم العربي والغربي، وامتلاك أدوات القوة العلمية والسلطة المعرفية في مواجهة المركزية الغربية والنظرة الفوقية.

المصادر والمراجع :

١. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٢. الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٦م.

٣. الاستغراب: موجز تاريخ النزعة المعادية للغرب، يان بوروما وأفيشاي مرغليت، ترجمة ثائر ديب.

٤. الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ترجمة محمد يوسف عدس، مؤسسة بافاريا، مصر، ط٢، ١٩٩٧م.

٥. إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، عبدالوهاب المسيري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٣م.

٦. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت ١٣٩٣ه)، دار الفكر، بيروت، عام ١٤١٥ه.

٧. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (ت ٧٢٨ه)، تحقيق ناصر العقل، دار عالم الكتب، بيروت، ط٧، ١٤١٩ه.

٨. الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي، هاشم صالح، دار الساقي، ٢٠٠٧م.

٩. أنوار البروق في أنواء الفروق، أحمد بن إدريس القرافي (ت:٦٨٤ه)، عالم الكتب.

١٠. البلدان، أحمد بن محمد الهمداني ابن الفقيه (ت٣٦٥ه)، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٦ه.

١١. بؤس الدهرانية: النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين، طه عبدالرحمن، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.

١٢. تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.

١٣. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ه)، الدار التونسية، تونس، عام ١٩٨٤م.

١٤. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦ه)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠.

١٥. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
١٦. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي (ت ١٣٧٦ه)، تحقيق: عبدالرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، عام ١٤٢٠ه.
١٧. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي (٦٧١ه)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الفكر المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤ه.
١٨. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (ت ٧٢٨ه)، تحقيق مجموعة من المحققين، دار العاصمة، الرياض، ط٢، ١٤١٩ه.
١٩. الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٦م.
٢٠. السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠ه)، مكتبة المعارف، الرياض.
٢١. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣ه)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية.
٢٢. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ه)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠ه.
٢٣. سنن الترمذي (الجامع الكبير)، محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩ه)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.
٢٤. سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي، عادل عيساوي، دار عقل للنشر، دمشق،٢٠١٦م.
٢٥. سؤال العمل: بحث عن الصول العملية في الفكر والعلم، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠١٢م.
٢٦. شذ العرف في فن الصرف، أحمد بن محمد الحملاوي (ت: ١٣٥١)، تحقيق نصر الله عبدالرحمن، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ٢٠٠١م.
٢٧. الشرق والغرب: منطلقات العلاقات ومحدداتها، علي النملة، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ٢٠١٠م.
٢٨. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ه)، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط١، عام ١٤٢٢هـ.

٢٩. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٠. ضعيف الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني (ت: ١٤٢٠ه)، المكتب الإسلامي.
٣١. الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري، بدران مسعود، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية، ١٤٢٠ه.
٣٢. العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي الجوزي (ت: ٥٩٧ه)، تحقيق إرشاد الحق الأثري، إدارة العلوم الأثرية، فيصل أباد، ط٢، ١٤٠١ه.
٣٣. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لمحمود بن أحمد الحنفي بدر الدين العيني (ت: ٨٥٥)، دار إحياء التراث، بيروت.
٣٤. الغرب من الداخل: دراسات للظواهر الاجتماعية، مازن مطبقاني.
٣٥. فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، أحمد سمايلوفتش، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٨ه.
٣٦. الفوائد، ، محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية (ت ٧٥١ه)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٣٩٣ه.
٣٧. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي الحنفي التهانوي (ت:١١٥٨ه)، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦ه.
٣٨. الكليات معجم المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الكفوي (ت:١٠٩٤هـ)، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٣٩ه.
٣٩. كنه الاستغراب المنهج في فهمنا الغرب، علي بن إبراهيم النملة، بيسان، ط٢، ١٤٣٧ه.
٤٠. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، عام ١٤١٤هـ.
٤١. المثقفون العرب والغرب: من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب، أحمد الشيخ، المركز العربي للدراسات الغربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.
٤٢. مجموع الفتاوى، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (ت ٧٢٨ه)، جمع عبدالرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد، السعودية، ١٤١٦ه.
٤٣. المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده (ت:٤٥٨)، تحقيق عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١ه.

٤٤. مختار الصحاح، زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي (ت٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط٥، عام ١٤٢٠هـ.
٤٥. مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦ه)، تحقيق محمد محيي الدين، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٣٩٣ه.
٤٦. المستشرقون البريطانيون، آرثر جون آربري (ت١٩٦٩م)، ط١، ١٩٤٦م.
٤٧. مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١ه)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ.
٤٨. المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني (ت:٣٦٠ه)، تحقيق طارق بن عوض الله وعبدالمحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ.
٤٩. المعجم الوسيط، مجموعة من المؤلفين من مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة.
٥٠. مقدمة في علم الاستغراب، حسن حنفي، الدار الفنية، القاهرة، ١٩٩١م.
٥١. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، أحمد بن علي تقي الدين المقريزي (ت٨٤٥ه)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨ه.
٥٢. الوجوه والنظائر، أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري (ت:٣٩٥)، تحقيق محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٢٨ه.

المجلات والدوريات:

٥٣. مجلة الآداب في جامعة بغداد.
٥٤. مجلة الاستغراب الصادرة من المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية.
٥٥. مجلة العربي الصادرة من وزارة الإعلام الكويتية.
٥٦. مجلة الفكر الإسلامي المعاصر الصادرة من المعهد العلمي للفكر الإسلامي.
٥٧. مجلة الفيصل الصادرة من مركز الملك فيصل للبحوث.
٥٨. مجلة جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية.
٥٩. مجلة دراسات استشراقية الصادرة من المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية..
٦٠. مجلة فكر ونقد.
٦١. مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر.